كلية العقيدة والدعوة

مذكرة توحيد ٦

عقد ٣٦١٦

جمع ومواءمة

د. سعود بن مصلح الصاعدي

١٤٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

بقية مسائل الإيمان باليوم الآخر
من البعث إلى الجنة والنار

أولاً :البعث

تعريف البعث لغة وشرعاً:

البعث لغة: البعث: قال ابن فارس: «الباء والعين والثاء أصل واحد: وهو الإثارة، يقال: بعثت الناقة إذا أثرتها»، ويأتي بمعنى: الإرسال، والنشر، والمعاد. يقال: بعثه إذا أرسله وأوصله.

وشرعاً: هو إحياء الله للموتى وإخراجهم من قبورهم للجزاء والحساب.

مفهوم الإيمان بالبعث:

الاعتقاد الجازم واليقين التام بإحياء الله للأموات وخروجهم من قبورهم ونحوها إلى حكم يوم القيامة، ليحاسبهم الله سبحانه وتعالى على أعمالهم.

الأدلة النقلية والعقلية على إثبات البعث:

دل الكتاب ومتواتر السنة وإجماع المسلمين على إثبات البعث بعد الموت .

والأدلة على إثبات البعث على قسمين:

القسم الأول: أدلة شرعية. وهي في القرآن والسنة كثيرة، فمن القرآن:

١- قال تعالى: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

٢- وقال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) سورة الحج (٦-٧).

٣- وقال تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ).

٤- وقال تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ) سورة المؤمنون (١٥-١٦).

٥- وقال تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ) سورة فاطر (٩).

ومن السنة:

١- قال ﷺ: "إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجع إلى جسده يوم يبعث"[١].

٢- في قصة الرجل الذي وقصته ناقته وهو واقف بعرفة فقال النبي ﷺ: "اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبين ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً"[٢].

القسم الثاني: أدلة شرعية عقلية. أي أن دلالتها عقلية أرشد إليها القرآن، وهي أربعة أنواع:

النوع الأول: أن القادر على خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته.

قال تعالى: (وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً * أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئاً * فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً..) سورة مريم (٦٦-٦٨).

النوع الثاني: أن القادر على خلق ما هو أعظم من الإنسان -كالسموات والأرض- قادر على إعادة خلق الإنسان.

قال تعالى: (لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ) سورة غافر (٥٧)، وقال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) سورة الأحقاف (٣٣).

النوع الثالث: الاستدلال على إحياء الموتى بإحياء النبات. قال تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ). وقال: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) سورة الأعراف (٥٧).

وهذا دليل جامع للأنواع الثلاثة السابقة: قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ *

---

[١] سنن ابن ماجه (ص ٧٠٨) حديث (٤٢٧١) وصححه الشيخ الألباني.

[٢] رواه البخاري (٤٢٥/١) رقم (١٢٠٦)، ومسلم (٨٦٥/٢) رقم (١٢٠٦). واللفظ للبخاري.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) سورة يس (٧٧-٨٢).

النوع الرابع: الاستدلال بوقوع إحياء الموتى في الدنيا على إمكان ذلك في الآخرة، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى**: (فإنه سبحانه دل على إمكان إحياء الموتى وقدرته على ذلك بطريق الوجود والعيان، وبطريق الاعتبار والبرهان، والأول أعظم الطريقين، فلا شيء أدل على إمكان الشيء من وجوده، فذكر في كتابه ما أحياه من الموتى في غير موضع:

-كما قال تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) سورة البقرة (٥٥-٥٦) فهذه في قصة موت بني إسرائيل الذين سألوه الرؤية.

- وقال في قصة البقرة: (فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) سورة البقرة (٧٣).

- وقال في الذين خرجوا من ديارهم: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ) سورة البقرة (٢٤٣)، وهي قصة معروفة.

- وقال تعالى: (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) سورة البقرة (٢٥٩) فقص هذه القصة التي فيها موت البشر مائة عام، وموت حماره، ومعه طعامه وشرابه، ثم إحياء هذا الميت وإحياء حماره وبقاء طعامه وشرابه لم يتغير ولم يفسد وهو في دار الكون والفساد التي لا يبقى فيها في العادة طعام وشراب بدون التغير بعد هذه المدة، وهذا يبين قدرته على إحياء الآدميين والبهائم وإبقاء الأطعمة والأشربة..

- وذكر بعد ذلك قول إبراهيم: (رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) سورة البقرة (٢٦٠)...

فهذه خمس قصص في إحياء الآدميين، وقصة في إحياء البهائم، وقصة في إبقاء الطعام والشراب، وقصة في إحياء الطير، وذكر في غير موضع إحياء المسيح للموتى، وذكر قصة أصحاب الكهف؛ وبقاءهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين

نياماً، لا يأكلون ولا يشربون وهم أحياء لم يفسدوا، وقال في القصة: (وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا) سورة الكهف (٢١)، فهذه القصص فيها من الإخبار بالموجود ما هو من أعظم الدلائل على القدرة والإمكان لإحياء الله الموتى، وصدق هذه الأخبار يعلم بما به يعلم صدق الرسول، ويعلم بأخبار أخرى من غير طريق الرسول وإخباره بها من أعلام نبوته) **انتهى كلامه رحمه الله تعالى**[1].

وفي هذا النوع الذي ذكره ابن تيمية قد يرد تساؤل:

وهو أن المسلمين مقرون بهذه القصص لكن كيف نثبتها للكفار؟

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وصدق هذه الأخبار يعلم بما به يعلم صدق الرسول، ويعلم بأخبار أخرى من غير طريق الرسول وإخباره بها من أعلام نبوته).

أي أننا نثبتها لهم بصدق النبي ﷺ، أو نثبتها لهم باشتهارها بالتناقل عند الكفار، لأن مثل هذه القصص العجيبة مما جرت العادة بحفظه ونقله عبر الأجيال.

ويمكن أن يضاف إلى ما سبق دليل عقلي خاص: وهو أن العقل السليم ينكر أن يكون هناك حياة في هذه الدنيا، وعيش يشتمل على تعب ونصب وظلم وإحسان وإساءة، بدون إحسان للمحسن وعقوبة للمسيء، بل المقصد من كل ذلك العبث، هذا لا يستقيم في العقل، بل لا بد من دار جزاء وحساب لما وقع في الدنيا.

دليل الإجماع:

أجمع المسلمون على إثبات البعث .

فمن كذب بالبعث فهو كافر كما دلت عليه النصوص السابقة وغيرها من الأدلة.

أول من يبعث مع الأدلة:

أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة بعد النفخة الثانية هو: نبينا محمد ﷺ ، يدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»[2].

---

[1] درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (٧/٣٧٥-٣٧٧).

([2]) مسلم , كتاب الفضائل , باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق , ص (١٠٠٨) , رقم : (٥٩٤٠) .

بعث العبد على ما مات عليه ، ودليله:

يبعث الإنسان على ما مات عليه من نية وعمل وحال، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «يبعث كل عبد على ما مات عليه» ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم» ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم في الحاج الذي وقصته الناقة: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبّيًا».

عود الأرواح إلى أجسادها عند البعث:

عند البعث تعود الأرواح التي فارقت الأجساد _إليها مرة أخرى كما في قول الله تعالى عند ذكر النفخة الثانية، وهي نفخة البعث: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وهذا يدل على أن الأجساد قد عادت إليها الحياة وذلك بعود الأرواح إليها مرة أخرى.

صفة البعث:

يُنزل الله تعالى يوم القيامة من السماء ماءَ مطرٍ جاء في الصحيح أنه كالطَّلِّ، وهو المطر الخفيف أو الرطوبة، فينبت الناس من ذلك المطر كما يَنبت البقل(الحِبة) في حميل السيل فينبتون من عُجْب الذنب, كما جاءت بذلك الأحاديث.

والأجساد تعود بالبعث إلى ما كانت عليه في الدنيا حتى قلفة الختان تعود إلى مكانها من المختون.

كما جاء في الحديث : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهماً) غرلاً: أي غير مختونين.

وعليه، فالبعث واقع على البدن الذي كان في الدنيا.

والبدن المعاد في الآخرة هو الذي خلق ابتداء في الدنيا، وتعاد إليه روحه التي كانت مقترنة به في الدنيا. والله أعلم

كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب:

كما ثبت بذلك الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلَّا عَجَبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ» وَعَنْ هَمَّامٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ«إِنَّ فِي الْإِنْسَانِ عَظْمًا لَا تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ أَبَدًا فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالُوا أَيُّ عَظْمٍ هُوَ؟ قَالَ عَجَبُ الذَّنَبِ».

وعَجَبُ الذَّنَبِ، وَيُقَالُ لَهُ عَجَمُ الذَّنَبِ وَهُوَ الْعَظْمُ اللَّطِيفُ الَّذِي فِي أَسْفَلِ الصُّلْبِ وَأَعْلَى مَا بَيْنَ الْأَلْيَتَيْنِ وَهُوَ رَأْسُ الْعُصْعُصُ.

أصناف منكري البعث:

الصنف الأول: أنكروا المبدأ والمعاد وهؤلاء وزعموا أنَّ الأكوان تتصرف بطبيعتها فتوجد وتعدم بأنفسها، ليس لها رب يتصرف فيها، إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدَّهرية والطبائعية.

الصنف الثاني: من الدهرية طائفة يقال لهم الدوريَّة وهم منكرون للخالق أيضاً، ويعتقدون أنَّ في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أنَّ هذا قد تكرَّر مرات لا تتناهى فكابروا في المعقول وكذَّبوا المنقول، قبحهم الله تعالى. وهاتان الطائفتان يعمهم قوله عز وجل﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾.

الصنف الثالث: الدهرية من مشركي العرب ومن وافقهم وهم مقرون بالبداءة، وأنَّ الله تعالى ربّهم وخالقهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧] ومع هذا قالوا:﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ فأقروا بالبداءة والمبدأ، وأنكروا البعثَ والمعاد، وهم المذكورون في حديث أبي هريرة الصحيح: ((وأما تكذيبه إيَّاي فقوله لَنْ يعيدني كما بدأني، وليس أوَّلُ الخلقِ بأهون عليَّ مِنْ إعادته)).

الصنف الرابع: ملاحدة الجهمية ومن وافقهم أنكروا معاد الأبدان وزعموا أنَّ المعاد بداءة أخرى فالأجساد التي تنعم وتعذب ليست هي الأجساد التي عملت الطاعة والمعصية.

كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، ومنه يركب:

تجسيد الأعراض يوم القيامة:

المراد تحويل الأعراض غير المحسوسة والأشياء المعنوية إلى أجساد معاينة محسوسة يوم القيامة.

وهذه المسألة من الأحكام الغيبية التي يجب الإيمان بها دون الخوض في كيفياتها.

وعليها مثالان:

المثال الأول: ذبح الموت:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: " يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ،

فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ}، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}"وفي رواية: (يُجَاءُ بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُوقَفُ).

دل الحديث على ذبح الموت: والموت زوال الحياة، وكل نفس ذائقة الموت، وهو أمر معنوي غير محسوس بالرؤية، ولكن الله تعالى يجعله شيئًا مرئيا مجسما، وَيُذْبَح بين الجنة والنار .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله السؤال التالي عن مَلك الموت، هل يُؤتَى به يوم القيامة ويُذْبح أم لا؟

فقال: (الجواب : أنه قد ثبت في الصّحاح: «أنه يُؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيقال: يا أهل الجنة. فيشْرَئبُّون وينظرون، ويا أهل النار. فيشْرَئبُّون وينظرون، فيقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت. فيُذبح بين الجنة والنار، ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك قوله تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}. ولكن هذا مما استشكله كثير من الناس، وقالوا: الموت عَرَض، والأعراض لا تنقلب أجسامًا، قالوا: لأن الأجناس لا تنقلب، فلا تنقلب الحركة طعمًا، والطعم لونًا، ولكن الأجسام في قولهم جنسٌ واحدٌ، فلهذا ينقلب بعضها إلى بعض، كانقلاب الماء ملحًا ورمادًا، قالوا: وإنما تتبدَّل الأعراض، وأما الأجسام فهي مركبة عندهم من جواهر منفردة متماثلة.

وأنكر ذلك على هؤلاء غيرُهم، وقال: ما ذكرتموه خطأ في المعقول والمنقول، فإنّ الصواب أن الأجسام أجناس مختلفة كالأعراض، وليس حقيقة الذوات كحقيقة الماء، وأن الله سبحانه يقلب الجنس إلى الجنس الآخر؛ كما يقلب الهواء ماء، والماء هواء، والنار هواء، والهواء نارًا، والتراب ماء، والماء ترابًا، وكما يقلب المنيّ عَلَقة، والعَلَقة مُضْغة، والمضغة عظامًا، وكما يقلب الحبة شجرة، وكما يقلب ما يخرج من الشجر ثمرًا. فهو سبحانه يخلق من الأعراض أجسامًا كما ورد بذلك النصوص في مواضع، كقوله عليه السلام: «اقرؤوا القرآن، اقرؤوا البقرة وآل عمران، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرْقان من طير صوافّ يحاجّان عن صاحبهما». وقال: «إن لسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، دويًّا عند العرش تذكُر صاحبَها». وقال: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». وقد قال تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} . جامع المسائل لابن تيمية ط عالم الفوائد – المجموعة السابعة (١/ ٥٦)

المثال الثاني: وزن الأعمال:

سئل فضيلة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: كيف توزن الأعمال، وهي أوصاف للعاملين؟ .

فأجاب بقوله: القاعدة في ذلك، كما أسلفنا: أن علينا أن نسلم ونقبل، ولا حاجة لأن نقول: كيف؟ ولم؟ ومع ذلك فإن العلماء – رحمهم الله – قالوا في جواب هذا السؤال: إن الأعمال تقلب أعيانا، فيكون لها جسم يوضع في الكفة فيرجح أو يخف). مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٢/ ٤٤).

مكان الأمة المحمدية عند البعث:

إن الله يميّز أمة محمد صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة عند البعث فتكون على تلٍّ في العرصات، قال صلّى الله عليه وسلّم: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي تبارك وتعالى حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذاك المقام المحمود».

ثانياً : الحشر

الحشر لغة: الجمع.

وشرعاً: سوق الخلائق يوم القيامة لأرض المحشر وجمعهم فيها لحسابهم والقضاء بينهم.

وبين الحشر والجمع علاقة وطيدة، فالحشر يسبق الجمع، وهو الوسيلة إلى غاية الجمع.

وقد يرد في النصوص التعبير بأحدهما عن الآخر.

والحشر حق ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين.

فمن أدلة الحشر في الكتاب : قوله تعالى : {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف: ٤٧].

وقوله تعالى: ({يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا } [مريم: ٨٥، ٨٦]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد". متفق عليه. يحشر: أي يجمع

وأجمع المسلمون على ثبوت الحشر يوم القيامة.

تبديل الأرض والسماوات يوم القيامة:

قال الله تعالى: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) سورة إبراهيم (٤٨).

فهل الأرض تتبدل بأرض غير هذه التي نحن عليها الآن؟ على قولين عند العلماء[١]:

الأول: أن الذي يتبدل هو معالم الأرض فقط كالجبال والهضاب والأودية.

الثاني: أنها تتبدل بأرض أخرى ذات صفات أخرى وهذا ما عليه ظاهر النص.

[١] ذكرها الحافظ ابن حجر، ورجح القول بأن ذات الأرض تتغير، وأورد على ذلك أحاديث رجالها موثوقون، أنظر (٤٥٦/١١).

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ :(المراد بتبديل الأرض المذكورة في قوله ـ تعالى ـ: {يوم تبدل الأرض غير الأرض} إنه تبديل ذات بذات، فيذهب بهذه الأرض ويؤتى بأرض أخرى، وهو قول جمهور العلماء).(١)

ولما أورد ابن جرير الطبري ـ رحمه الله ـ اختلاف أهل العلم في هذه الآية، وذكر أقوالهم الخمسة، قال: (وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا الْيَوْمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَهَا، وَكَذَلِكَ السَّمَوَاتُ الْيَوْمَ تُبَدَّلُ غَيْرَهَا، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ الْمُبَدَّلَةُ أَرْضًا أُخْرَى مِنْ فِضَّةٍ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ نَارًا، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ خُبْزًا، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ غَيْرَ ذَلِكَ، وَلَا خَبَرَ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا مِنَ الْوَجْهِ الَّذِي يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ أَيُّ ذَلِكَ يَكُونُ، فَلَا قَوْلَ فِي ذَلِكَ يَصِحُّ إِلَّا مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ التَّنْزِيلِ).(٢)

وهناك قول ثالث يجمع بين القولين، وهو أن التبديل يقع مرتين:

المرة الأولى: تبديل صفات الأرض بمدها مداً، ودك جبالها، وجعلها مستوية، ثم يحشر الناس عليها، فهذا التبديل تبديل صفات الأرض لا ذاتها، ويدل له حديث "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي ليس فيها علم لأحد". متفق عليه.

المرة الثانية: تبديل ذات الأرض والسموات وهذا يقع والناس على الصراط. ويدل له الآية وحديث عائشة المفسر لها تلَت عائشةُ هذهِ الآيةَ : يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ قالت : يا رسولَ اللهِ ! فأينَ يكونُ النَّاسُ ؟ قالَ : علَى الصِّراطِ.

ومعلوم أن الصراط من أواخر موقف الآخرة، وأن الحشر من أوائلها وكلاهما جاء فيه تبديل الأرض فلا يستقيم القول بتبديل الأرض في أحدهما دون الآخر مع تباعدهما . والله أعلم

صفة حشر الناس بعد البعث:

يحشر الناس حفاة لا نعال عليهم، عراة لا كسوة عليهم، غرلاً غير مختونين؛ لقوله تعالى:(كما بدأنا أول خلق نعيده)، وقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "إنكم تحشرون حفاة، عراة، غرلاً، ثم قرأ :(كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين) ". متفق عليه.

وفي حديث عبدالله بن أنيس المرفوع الذي رواه أحمد: "يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلاً، بهماً "قلنا: وما بهماً ؟قال: "ليس معهم شيء".

والناس يتفاوتون في المحشر بحسب أعمالهم.

يحشر الكافرون وهم يسحبون في المحشر على وجوههم عن أنس بن مالك رضي الله عنه (أن رجلا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟...).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٥١/٧).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن (٤٥/١٧)، وانظر: زاد المسير في علم التفسير (٥٢٠/٢)، الجامع لأحكام القرآن (٣٨٤/٩).

ويحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان .

كسوة العباد يوم القيامة، وأول الخلائق كسوة في المحشر:

يحشر الله العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، كما صحت بذلك الأحاديث ، ثم يكسى العباد ، فالصالحون يكسون الثياب الكريمة ، والطالحون يسربلون بسرابيل القطران ، ودروع الجرب ، ونحوها من الملابس المنكرة الفظيعة .

وأول من يكسى من عباد الله نبي الله إبراهيم خليل الرحمن ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ « إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً – ثُمَّ قَرَأَ – { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } ،وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ ، وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَقُولُ أَصْحَابِي أَصْحَابِي . فَيَقُولُ ، إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ . فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ (وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) رواه البخاري

وتقدم في الحديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تل، ويكسوني ربي تبارك وتعالى حلة خضراء، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذاك المقام المحمود».

وهو يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم يكسى بعد البعث وقبل الشفاعة. والله أعلم

أحوال الناس في المحشر:

ورد في النصوص ذكر أحوال مخصوصة لبعض الخلق، فمن ذلك:

– الكفار: فإنهم –كما قال الله تعالى–: (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً) سورة الإسراء (٩٧). وقد استشكل أحد الصحابة ذلك، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا نبي الله؛ كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: "أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة" قال قتادة: بلى وعزة ربنا[1].

إشكال: كيف يسمع الكفار حسيس النار وزفيرها، ويكلمون مالكاً –خازن النار–، ويتخافتون بينهم ويلعن بعضهم بعضاً –كما ذكر الله تعالى عنهم في آيات كثيرة– مع أن الله يحشرهم عمياً وبكماً وصماً؟

الجواب: أن نقول إن القيامة ليست موقفاً واحداً، وإنما هي مواقف متعددة فموقف الحشر غير موقف المرور على الصراط مثلاً، وموقف المرور على الصراط غير موقف النار.

وقد اختلف أهل العلم في أي المواقف يكون الكفار عمياً وبكماً وصماً؟

[1] رواه البخاري (٤/١٧٨٤) رقم (٤٤٨٢).

فذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي أقوال العلماء ورجح أنهم في أول الحشر يكونون عمياً وصماً وبكماً[1]، ثم ترد إليهم حواسهم.

ويحشر المجرمون عطاشاً يوم القيامة كما قال تعالى: (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً) مريم (٨٦) ورداً: أي عطاشاً.

- المتكبرون: فقد قال النبي ﷺ: "يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال"[2].

- من يسأل الناس تكثراً: ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: "ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم"[3].

أما أهل الإيمان فإنهم يحشرون في غاية الإكرام كما قال تعالى: (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا) أي مكرمين، وقد جاء وصف أحوالٍ مخصوصة لبعضهم، منها:

- أهل الوضوء: ففي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: "إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل"[4].

- الشهيد: ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "والذي نفسي بيده لا يُكلَمُ أحد

في سبيل الله، والله أعلم بمن يُكلَمُ في سبيله، إلا جاء يوم القيامة واللون لون الدم والريح ريح المسك"[5].

الجمع، تعريفه، والأدلة عليه:

المراد بالجمع: جمع الله الناس يوم القيامة على صعيد أرض المحشر.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقال تعالى:(قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم).

ويسمى يوم القيامة بيوم الجمع كما قال تعالى : ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ [التغابن: ٩].

---

[1] أضواء البيان (٨٨/٣)، عند تفسير قوله تعالى: (وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) طه (١٢٤). فقال: (الوجه الأول:... ويكون ذلك في مبدأ الأمر ثم يرد الله تعالى إليهم أبصارهم ونطقهم وسمعهم فيرون النار ويسمعون زفيرها... وأظهرها عندي الأول: والله تعالى أعلم).

[2] رواه الترمذي (ص٥٦١) رقم (٢٤٩٢)، وأحمد (١٧٩/٢) رقم (٦٦٧٧). وحسنه الإمام الترمذي والشيخ الألباني رحم الله الجميع.

[3] رواه البخاري (٥٣٦/٢) رقم (١٤٠٥) ومسلم (٧٢٠/٢) رقم (١٠٤٠).

[4] رواه البخاري (٦٣/١) رقم (١٣٦)، ومسلم (٢١٦/١) رقم (٢٤٦).

[5] رواه البخاري (١٠٣٢/٣) رقم (٢٦٤٩) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٦/٣) رقم (١٨٧٦).

وجاء في الحديث الصحيح عن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال: "يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي" قال سهل أو غيره: ليس فيها معلم لأحد[1]. ويجمع الناس كلهم على هذه الأرض ففي الحديث: "يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر"[2].

جمع الناس وقيامهم لعظمة الرحمن تبارك وتعالى يوم القيامة:

يقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٤-٦].

جاء عند أحمد في مسنده «عن ابن عمر، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " {يقوم الناس لرب العالمين} [المطففين: ٦]، لعظمة الرحمن تبارك وتعالى يوم القيامة، حتى إن العرق ليلجم الرجال إلى أنصاف آذانهم "» مسند أحمد (٨/ ٤٦٧ ط الرسالة) برقم (٤٨٦٢)، وأصله في الصحيحين بمعناه: صحيح البخاري برقم (٤٦٥٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٦).

مجيء الرب تعالى للفصل بين العباد، وتجليه في الموقف:

مجيء الله جل جلاله لفصل القضاء دل عليه أدلة كثيرة: فمن الكتاب:

قال تعالى: (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ) البقرة (٢١٠).

وقال تعالى: (كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) الفجر (٢١-٢٢).

وقال تعالى: (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً) الفرقان (٢٥). قال أهل العلم: توطأة لنزول الله[3].

وقال تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ) الزمر (٦٩). تشرق بنوره إذا جاء[4].

ومن السنة:

قول النبي ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى أهل القيامة ليقضي بينهم وكل أمة جاثية"[5].

---

[1] رواه البخاري (٥/٢٣٩٠) رقم (٦١٥٦) واللفظ له، ومسلم (٤/٢١٥٠) رقم (٢٧٩٠). وقال ابن حجر (١١/٤٥٦): (كقرصة النقي: .. أي الدقيق النقي من الغش والنخال قاله الخطابي). والقرصة هي الخبزة.

[2] رواه البخاري (٣/١٢٢٦) رقم (٣١٨٢)، ومسلم (١/١٨٤) رقم (١٩٤). واللفظ له.

[3] تفسير الطبري (١٩/٦).

[4] تفسير الطبري (٢٤/٣٢).

[5] رواه ابن خزيمة في صحيحه (٤/١١٦) حديث (٢٤٨٢)، وابن حبان في صحيحه (٢/١٣٦) حديث (٤٨٠)، والحاكم في المستدرك (١/٥٧٩) حديث (١٥٢٧) وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه هكذا). وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث (١٧١٣).

قال شيخ الإسلام: (والأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في إتيان الرب يوم القيامة كثيرة)[1].

وقال ابن القيم رحمه الله في الصواعق المرسلة: (قد تواترت به الأحاديث والآثار ودل عليه القرآن صريحاً).

وهذا المجيء الإلهي يوم القيامة هو أحد أنواع النزول الثابتة لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه، والجهمية ومن وافقهم من أصناف المعطلة الآخرين تنكر ذلك[2].

١١- رؤية الرب تعالى في العرصات، وتكليمه الناس.:

١٢- كشف الرب عن ساقه في العرصات، وضحكه للمؤمنين فقط.

١٣- اتباع الناس معبوداتهم يوم القيامة، وسجود المؤمنين إذا عرفوا ربهم في العرصات.

جاء في الحديث الصحيح عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي، أن أبا هريرة أخبرهما، أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: "هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ " قالوا: لا يا رسول الله، قال: "فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ " قالوا: لا، قال: "فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة، فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيدعوهم ...) وفي لفظ: عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا".

وجاء في حديث أبي موسى وأبي هريرة رضي الله عنهما أن الله يوم القيامة يتجلى للمؤمنين ضاحكاً . أخرجه ابن خزيمة في التوحيد، وغيره . وانظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٧٥٥و٧٥٦).

١٤- المحرومون من الكلام الإلهي يوم القيامة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٧]

وعن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم. قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار. قال أبو ذر: خابوا

---

[1] مجموع الفتاوى -شرح حديث النزول- (٥/٣٧٤).

[2] راجع للإستزادة كتاب شرح حديث النزول لابن تيمية، ورسالة صفة النزول الإلهي ورد الشبهات حولها.

وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » صحيح مسلم (١/ ٧١ ط التركية)

ثالثاً: العرض، والحساب، والجزاء

المراد بالعرض: عرض جميع عباده على الله تعالى عرضاً حقيقاً حتى يحاسبهم، قال الله تعالى: (وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا) الكهف (٤٨)، وقال: (يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ) الحاقة (١٨) وقال: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا) إبراهيم (٢١).

عدد العرضات:

خبر عدد العرضات وبأنها ثلاثة، لم تثبت مرفوعاً.

فقد روي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما هو عند ابن ماجه (٤٢٧٧) وغيره عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَلِيِّ بْنِ رِفَاعَةَ، عَنْ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –: يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، فَأَمَّا عَرْضَتَانِ فَجِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَأَمَّا الثَّالِثَةُ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَطِيرُ الصُّحُفُ فِي الْأَيْدِي، فَآخِذٌ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ.

لكن سنده ضعيف؛ فهو منقطع بين الحسن البصري، وأبي موسى رضي الله عنه؛ لأن الحسن لم يسمع من أبي موسى.

لكن روي ذلك عن بعض الصحابة فهل هو فهم فهموه من نصوص الوحي المخبرة عن حال العباد يوم القيامة، أم هو شيء سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم؟. الله أعلم

أنواع العرض، وما يترتب على كل نوع:

العرض الكائن يوم القيامة ثلاثة أنواع:

الأول: عرض عام لجميع الخلائق برهم وفاجرهم أمام الله تعالى، ومن أدلته قوله تعالى: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [الكهف: ٤٨] ، وقوله سبحانه: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ *} [الحاقة] .

وقد دلَّ على هذا النوع من العرض أيضًا النصوص المثبتة لحشر العباد في صعيد واحد، ومجيء الرب تعالى وتكليمه إيَّاهم.

الثاني: عرض خاص بالمؤمنين، وهو الحساب اليسير كما مر في الحديث الآنف الذكر، وكما في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: {هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ *}».

الثالث: عرض خاص بالكفار والمنافقين، وهو المناقشة، وهو عرض فضيحة على رؤوس الأشهاد، لا ستر فيه ولا مغفرة، وقد دلَّ على هذا النوع من العرض قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ *} [هود] .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وهذا يتناول كل كافر ممن كذَّب على الله بادعاء الرسالة كاذبًا، ويتناول كل من كذب رسولاً صادقًا».

والحساب لغة: العدد ، وشرعاً: إطلاع الله عباده على أعمالهم.

وهو ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع المسلمين.

قال الله تعالى: (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦).

وكان النبي، صلى الله عليه وسلم ، يقول في بعض صلاته: "اللهم حاسبني حساباً يسيراً "فقالت عائشة رضي الله عنها: ما الحساب اليسير؟ قال: "أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه". رواه أحمد. وقال الألباني : إسناده جيد.

وأجمع المسلمون على ثبوت الحساب يوم القيامة.

الفرق بين العرض والحساب:

المقصود بالعرض: أن تُعرض على المؤمن أعماله حتى يعرف منة الله عليه في ستر ذنوبه عليه في الدنيا، وعفوه عنها في الآخرة. ويسمى الحساب اليسير.

أما الحساب : فهو استقصاء الأعمال صغيرها وكبيرها، والتدقيق في ذلك، وعدم المسامحة عليها، فمن نوقش الحساب بهذه الطريقة هلك بلا ريب، إذ الإنسان ليس بمعصوم من المعاصي، فكيف إن حوسب على التقصير في جنب الله. ويسمى المناقشة والحساب العسير.

ومن أمثلة ما ورد في المناقشة: ما جاء عند الترمذي[1] في ذكر أول من تسعر بهم النار[2].

إذا علمت هذا التقسيم، فإن يزول به الاستشكال في الجمع بين قول الله تعالى: (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) والحديث: "من نوقش الحساب هلك" فالحساب في الآية هو العرض، وفي الحديث هو المناقشة.

*** هل يحاسب الكفار أم لا يحاسبون؟**

الكفار والمنافقون ينادى بهم على رؤوس الخلائق (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين).

والصواب المقطوع به أنهم يحاسبون محاسبة تقريع وتوبيخ والأدلة كثيرة، منها:

قال تعالى: (وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ). سورة الأنعام (٣٠).

وقال تعالى: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ). سورة الصافات (٢٤).

---

[1] (ص٥٣٦) حديث (٢٣٨٢) وقال: (هذا حديث حسن غريب)، ورواه ابن خزيمة (١١٥/٤-١١٦) حديث (٢٤٨٢)، وابن حبان (١٣٥/٢-١٣٧) حديث (٤٠٨)، والحاكم في المستدرك (٥٧٩/١) حديث (١٥٢٧)، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه هكذا..)، وصححه الشيخ الألباني.

[2] وهم قارئ القرآن رياءً، والمجاهد رياء، والمنفق ماله رياء، فارجع إلى الحديث فاقرأه فإنه قلَّ من لا يقع فيما وقع فيه الثلاثة.

وقال: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ). سورة القصص (٦٥).
أما الأدلة التي يفهم منها نفي الحساب عن الكافرين كقوله تعالى: (وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) سورة القصص (٧٨)، فمحمول على بعض المواقف دون بعض، أو أنهم لا يُسألون سؤال راحة واستعلام وإنما سؤال توبيخ وتقريع.

المستثنون من الحساب:

الحساب عام لجميع الناس إلا من استثناهم النبي، صلى الله عليه وسلم ، وهم سبعون ألفاً من هذه الأمة منهم عكاشة بن محصن يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب. متفق عليه. وروى أحمد من حديث ثوبان مرفوعاً أن مع كل واحد سبعين ألفاً، قال ابن كثير: حديث صحيح وذكر له شواهد.
وأول من يحاسب هذه الأمة لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي بينهم قبل الخلائق" متفق عليه.
وروى ابن ماجه عن ابن عباس مرفوعاً: "نحن آخر الأمم وأول من يحاسب..." الحديث.

المساءلة فيما بين الرب تعالى وعبده، ونماذج من المساءلات التي دلت عليها النصوص:

تقدم في الحديث: قوله صلّى الله عليه وسلّم: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد: {هَؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ *}».

عدد الدواوين ومنزلتها عند الله تعالى:

جاء ذكر الدواوين في بعض الأحاديث ولعل المراد بها صحف الأعمال، فمن ذلك ما جاء في الحديث عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك الله منه شيئا، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله (٤)، قال الله عز وجل: {إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة} [المائدة: ٧٢] وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئا: فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه أو صلاة تركها، فإن الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئا: فظلم العباد بعضهم بعضا، القصاص لا محالة ". أخرجه أحمد وغيره. وحسنه الألباني بشواهده كما في الصحيحة برقم (١٩٢٧).

الجزاء ، تعريفه، والأدلة عليه:

تعريف الجزاء: الجزاء بمعنى المجازاة، ومعناه: أن يجازي الله المحسن على أعماله الصالحة بالثواب عليها بالنعيم المقيم، وداره الجنة، ويجازى المسيء على أعماله السيئة بالعذاب الأليم، وداره النار، وذلك بعد تقرير كل عامل بعمله من خير وشر.

ومن الأدلة عليه: قول الله تعالى: ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١][١]. ونحوها من الآيات.

ومن السنة: حديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى ما شاء الله، قال الله عز وجل: إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي...." الحديث. ونحوه من الأحاديث.

جزاء حسنات الكافر يوم القيامة:

لا يستفيد الكافر من حسناته يوم القيامة شيئاً.

قال تعالى عن الكفار : ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: "مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد". وقال تعالى: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا" قال ابن كثير: (وهذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا، فتكون أبعد من القبول حينئذ).

أول ما يحاسب عليه العبد وأول ما يقضى فيه بين الناس يوم القيامة،:

أول ما يحاسب عليه العبد من حقوق الله: الصلاة؛ لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله" رواه الطبراني.

وأول ما يقضى بين الناس في الدماء؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : "أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء". متفق عليه.

ولا تعارض بينهما فالأول في حقوق الله، والثاني في حقوق الخلق.

وجاء الجمع بينهما، فقد روى النسائي من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: "أول ما يحاسب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء"[١].

تعدد الأشهاد على الإنسان يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: ١٨]، ذكر ابن الجوزي وغيره في المراد بالأشهاد ستة أقوال:

---

[١] رواه النسائي في المجتبى (ص٦١٧) حديث (٣٩٩١)، وصححه الشيخ الألباني رحم الله الجميع.

الأول: أنهم الرسل،. والثاني: الملائكة، قاله مجاهد وقتادة. والثالث: الخلائق أو الناس، والرابع: الملائكة والنبيون وأمة محمد صلى الله عليه وسلم . والخامس: الأنبياء والمؤمنون. والسادس: الجوارح كما سيأتي في الآيات التالية[1].

وقال سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: ٦٥]، وقال جلا وعلا: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢﴾ [فصلت: ٢٠-٢٢].

فتضمنت هذه الآيات شهادة جوارح الإنسان عليه: يديه ورجليه ولسانه وسمعه وبصره وجلده. وفسر بعضهم الجلد: بالفرج.

ومن الأشهاد: الأرض، قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ٤﴾ [الزلزلة: ٤]. «أي: تخبر بما عمل عليها.

وفي حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول: عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا»[2].

الامتحان يوم القيامة:

جميع مواقف الآخرة فيها امتحان واختبار للناس، وهو نوعان:

الأول: امتحان عام: وهذا لجميع المكلفين؛ ليظهر أهل النجاة من أهل الهلاك ، وأول ذلك فتنة القبر ، ومن أجلى مواقف الامتحان العامة: عند الميزان، وعند تطاير الصحف، وعند المرور على الصراط.

الثاني: امتحان خاص: لبعض المكلفين ممن لم تقم عليه الحجة في الدنيا. والغرض منه: إقامة الحجة والعذر.

روى الإمام أحمد عَنِ الْأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ ، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (أَرْبَعَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : رَجُلٌ أَصَمُّ لَا يَسْمَعُ شَيْئًا، وَرَجُلٌ أَحْمَقُ ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ ، فَأَمَّا الْأَصَمُّ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَسْمَعُ شَيْئًا، وَأَمَّا الْأَحْمَقُ فَيَقُولُ: رَبِّ ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالصِّبْيَانُ يَحْذِفُونِي بِالْبَعْرِ، وَأَمَّا الْهَرِمُ فَيَقُولُ: رَبِّ، لَقَدْ جَاءَ الْإِسْلَامُ وَمَا أَعْقِلُ شَيْئًا، وَأَمَّا الَّذِي مَاتَ فِي الْفَتْرَةِ فَيَقُولُ: رَبِّ، مَا أَتَانِي لَكَ رَسُولٌ

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٣٦٥).

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير (٤/ ٤٧٨).

، فَيَأْخُذُ مَوَاثِيقَهُمْ لَيُطِيعُنَّهُ ، فَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ أَنْ ادْخُلُوا النَّارَ، قَالَ: فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ دَخَلُوهَا لَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْدًا وَسَلَامًا)[1].

دل هذا الحديث على أن هناك من يمتحن يوم القيامة؛ لأجل إقامة الحجة عليهم التي لم تقم في الدنيا، ومنهم هؤلاء الأربعة.

قال ابن القيم رحمه الله بعد أن ذكر الأحاديث التي فيها امتحان هؤلاء يوم القيامة :

" هِيَ الْمُوَافِقَةُ لِلْقُرْآنِ ، وَقَوَاعِدِ الشَّرْعِ ، فَهِيَ تَفْصِيلٌ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ أَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِمْ حُجَّةُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُقِيمَ حُجَّتَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَحَقُّ الْمَوَاطِنِ أَنْ تُقَامَ فِيهِ الْحُجَّةُ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَتُسْمَعُ الدَّعَاوَى ، وَتُقَامُ الْبَيِّنَاتُ، وَيَخْتَصِمُ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيِ الرَّبِّ ، وَيَنْطِقُ كُلُّ أَحَدٍ بِحُجَّتِهِ وَمَعْذِرَتِهِ ، فَلَا تَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَتَنْفَعُ غَيرهُمْ "[2]. انتهى

شهادة الأمة المحمدية على سائر الأمم يوم القيامة:

مِن جملة ما اختَصَّ اللهُ به هذه الأمةَ دون غيرها مِن الأمم السابقة: أنهم شهداء الله في أرضه، فقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

فتقوم هذه اللأمة في الآخرة بالشهادة على غيرها مِن الأمم السابقة بتبليغ أنبيائهم لهم، والأصل في ذلك ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾»، وَالوَسَطُ: العَدْلُ. أخرجه الإمام البخاري في "صحيحه".

القصاص يوم القيامة المراد به وأنواعه ، والأدلة عليه:

المراد بالقصاص يوم القيامة: أن يأخذ الله الحق من الظالم أو المعتدي ويعطيه للمظلوم أو المعتدى عليه، سواء كان ذلك بين المكلفين كالبشر أو غير المكلفين كالقصاص بين الحيوانات.

يقول الله عز وجل : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) الأنبياء/٤٧

---

(١) أحمد "مسنده" (١٦٣٠١)، وحسنه محققو المسند ، وصححه الألباني في "الصحيحة" (١٤٣٤) وله شواهد متعددة ، ذكرها ابن كثير في تفسيره (٥/٥٠-٥٣).

(٢) أحكام أهل الذمة (٢/ ١١٤٩).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (يَقْتَصُّ الْخَلْقُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، حَتَّى الْجَمَّاءُ مِنْ الْقَرْنَاءِ ، وَحَتَّى الذَّرَّةُ مِنْ الذَّرَّةِ) (١).

والقصاص شامل وعام بين جميع الخلائق، وهو على أنواع :

١- يقتص المؤمن المظلوم ممن ظلمه من الخلائق ، مؤمنهم وكافرهم ، إنسهم وجنهم .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

(إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ) (٢).

٢- ويقتص الكافر المظلوم أيضا ممن ظلمه من الخلائق : فيقتص من الكافر الظالم ، ويقتص من المسلم الظالم المعتدي ، لعموم حديث أبي هريرة السابق : (يقتص الخلق بعضهم من بعض) .

غير أن المسلم لا يعد ظالما للكافر إذا كان الكافر محاربا معتديا ، أما إذا كان ذميا أو معاهدا أو مؤتمنا ، فلا يجوز للمسلم أن يظلمه ولا أن يعتدي عليه ، بل جاء التشديد في أمره في كثير من الآيات والأحاديث.

٣- وتقتص الدواب بعضُها من بعض : وهي وإن كانت غير مكلفة ، إلا أن قصاصها قصاص مقابلة واستحقاق ، كي يقام العدل الذي به تقوم السماوات والأرض .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

(لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) (٣) والجلحاء : التي لا قرن لها .

بل إن الدواب تقتص من بني آدم يوم القيامة :

يقول ابن حجر الهيتمي:

" فهذا من الدليل على القصاص بين البهائم ، وبينها وبين بني آدم ، حتى الإنسان لو ضرب دابة بغير حق أو جوَّعها ، أو عطَّشها ، أو كلفها فوق طاقتها فإنها تقتص منه يوم القيامة بنظير ما ظلمها أو جوَّعها ، ويدل لذلك حديث الهرة ، وفي الصحيح : (أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى الْمَرْأَةَ مُعَلَّقَةً فِي النَّارِ وَالْهِرَّةُ تَخْدِشُهَا فِي وَجْهِهَا وَصَدْرِهَا وَتُعَذِّبُهَا كَمَا عَذَّبَتْهَا فِي الدُّنْيَا بِالْحَبْسِ وَالْجُوعِ) (٤) ، وهذا عام في سائر الحيوانات ... "(٥) انتهى .

قضاء الله تعالى لأمة محمد ﷺ قبل الخلائق يوم القيامة.

---

(١) رواه أحمد (٣٦٣/٢) وصححه محققو المسند ، والألباني في "السلسلة الصحيحة" (١٩٦٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٤) انظر : صحيح البخاري (٧٤٥) ومسند أحمد (١٥٩/٢)

(٥) الزواجر (١٤١/٢)

تقدم أن أول من يحاسب هذه الأمة لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضي بينهم قبل الخلائق" متفق عليه.

القصاص بين العباد يوم القيامة يكون بالحسنات والسيئات.

دلت النصوص على أن القصاص بين المكلفين يوم القيامة يكون بالحسنات والسيئات كما في حديث أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه) (١).

وعند الطبراني من حديث محمد بن عبد الله بن جحش، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لو أن رجلا قتل في سبيل الله ثم أحيي ثم قتل في سبيل الله ثم أحيي لم يدخل الجنة حتى يقضى عنه دينه، وليس ثمة ذهب ولا فضة، **إنما هي الحسنات والسيئات**»(٢).

أسباب سقوط القصاص الأخروي:

القصاص بين الحيوان، وأدلته:

القصاص بين الحيوانات يقع في الآخرة عدلاً من الله تعالى، وهو قصاص مقابلة واستحقاق؛ وليس لأجل التكليف. وتقدم الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ) (٣).

صحائف الأعمال وصفاتها:

الصحف جمع صحيفة، والمراد بها: صحائف أعمال العباد التي حوت أعمالهم وتنشر لهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق وتوزع عليهم، وتسمى الدواوين والكتب أيضاً.

والدواوين: جمع ديوان وهو لغة: الكتاب يحصى فيه الجند ونحوهم.

فنشر الصحف والدواوين إظهار صحائف الأعمال يوم القيامة، فتتطاير إلى أيامن الناس وشمائلهم.

ونشر الصحف ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة.

قال الله تعالى : ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾

---

(١) صحيح البخاري (٥/ ٢٣٩٤).

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٩/ ٢٤٧) ، وروي بمعناه عند النسائي؛ وحسنه الألباني، ويشهد له حديث أبي هريرة المتقدم.

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٢).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي، صلى الله عليه وسلم: "هل تذكرون أهليكم؟ قال: أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً :عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه، أم في شماله، أم وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهراني جهنم حتى يجوز" رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

وأجمع المسلمون على ثبوت ذلك.

صفة أخذ الناس صحفهم:

المؤمن يأخذ كتابه بيمينه فيفرح ويستبشر ويقول:(هاؤم اقرأوا كتابيه)

والكافر يأخذه بشماله، أو من وراء ظهره فيدعو بالويل والثبور ويقول:

(يا ليتني لم أوت كتابيه .ولم أدر ما حسابيه).

رابعاً : الميزان

تعريف الميزان لغة وشرعاً:

الميزان لغة: ما تقدر به الأشياء خفة وثقلاً، جمعه موازين.

وشرعاً: ما يضعه الله يوم القيامة لوزن أعمال العباد.

صفة الميزان: هو ميزان حقيقي، له كفتان، لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي، صلى الله عليه وسلم في حديث صاحب البطاقة قال: "فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة". الحديث رواه الترمذي وابن ماجه. قال الألباني: إسناده صحيح.

أدلة الميزان:

دل على ثبوت الميزان الكتاب، والسنة، وإجماع السلف.

قال الله تعالى:(فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون)

وقال تعالى:(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين).

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم:"كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم".متفق عليه.

وأجمع السلف على ثبوت ذلك.

معنى الإيمان بالميزان: الاعتقاد الجازم واليقين التام بأن الله ينصب للناس يوم القيامة ميزاناً حقيقياً له كفتان توزن به الحسنات والسيئات وصحائف الأعمال والعاملون.

الخلاف في وحدة الميزان وتعدده:

اختلف العلماء هل هو ميزان واحد أو متعدد؟

فقال بعضهم: متعدد بحسب الأمم، أو الأفراد، أو الأعمال لأنه لم يرد في القرآن إلا مجموعاً وأما إفراده في الحديث فباعتبار الجنس.

وقال بعضهم: هو ميزان واحد لأنه ورد في الحديث مفرداً، وأما جمعه في القرآن فباعتبار الموزون.

وكلا الأمرين محتمل. والله أعلم.

الأمور التي يقع عليها الوزن (الموزونات):

قيل : الذي يوزن العمل.

وقيل: صحائف العمل لحديث صاحب البطاقة.

وقيل: العامل نفسه لحديث أبي هريرة أن النبي، صلى الله عليه وسلم ، قال:"إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة".وقال اقرؤوا: (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) متفق عليه.

وجمع بعض العلماء بين هذه النصوص بأن الجميع يوزن، وأن الوزن حقيقة للأعمال ، حيث إن الموازين تثقل وتخف بحسب الأعمال المكتوبة في الصحف، وأما وزن الصحف والعامل فتبع لذلك . والله أعلم

المستثنون من الوزن:

الطائفة الأولى: من لا حساب عليهم من المؤمنين، فهل يوزنون؟

ذهبت طائفة إلى أنهم لا يوزنون، منهم ابن حجر[1]، والقرطبي[2] رحمهما الله.

ومن باب أولى عندهم أن الأنبياء لا يوزنون، وكأن أصحاب هذا الرأي رأوا أن الوزن فرع عن الحساب، فمن لا حساب عليه لا وزن عليه.

والذي تدل عليه ظواهر النصوص أن عموم الناس يوزنون، قال تعالى: (فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ) الأعراف (٦-٩). وقال تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ **النَّاسُ** كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ..) الآيات القارعة (٤-٩). فعموم هاتين الآيتين يدل على عموم الوزن لكل الناس فيدخل في ذلك الأنبياء.

* ما الفائدة من وزن من ليس عنده إلا حسنات محضة؟

قال القرطبي رحمه الله: (وإنما توزن أعمال المؤمن المتقي لإظهار فضله... وتحسيناً وإشارة لخلوه من كل شر، وتزييناً لأمره على رؤوس الأشهاد)[3].

---

[1] فتح الباري (٦٧١/١٣).

[2] مختصر التذكرة (٢٩٥).

[3] مختصر التذكرة (ص٢٩٩)، وقال ابن كثير في النهاية تحت عنوان ليس الميزان لكل فرد من أفراد الناس يوم القيامة: (.. وقد توزن أعمال السعداء وإن كانت راجحة لإظهار شرفهم على رؤوس الأشهاد، والتنويه بسعادتهم ونجاتهم).

الطائفة الثانية: الكفار، هل يوزنون أم لا؟ خلاف على ثلاثة أقوال:

الأول: أن الوزن حاصل لهم، والأدلة عدة:

قال تعالى: (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ) المؤمنون (١٠٣-١٠٥). فالسياق في الكفار، والآية صريحة في وزنهم.

وقال تعالى: (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا) فـ (نفس) عموم، وهي نكرة في سياق النفي.

وقال تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ...). والكفار داخلون في عموم قوله: (الناس).

الثاني: أنهم لا يوزنون:

قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) سورة الكهف (١٠٥). قالوا: الآية أفادت أن الوزن لا يقام للكفار. ونوقش قولهم هذا من وجهين:

الوجه الأول: أن المقصود من الآية أن الكفار لا قدر لهم عند الله.

الوجه الثاني: قد يقال أن معنى الآية: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً نافعاً.

الثالث: التفصيل، فمنهم من يوزن ومنهم من لا يوزن، واختلفوا في تحديد الفريقين، ومن ذلك ما ذكر ابن حجر رحمه الله أن الذي لا يوزن من الكفار هو من ليس عنده إلا كفر محض، فقال: (فمن الكفار من لا ذنب له إلا الكفر ولم يعمل حسنة فإنه يقع في النار من غير حساب ولا ميزان)[1]، وأما من يوزن منهم فمن عنده حسنات كصلة الرحم مثلاً.

وهذا القول فيه نظر: فإنه مما يبعد جداً أن يوجد كافر ليس له أي حسنة حتى لو كانت من أمثال إماطة الأذى.

فيظهر من هذا أن الكفار يوزنون لما في ذلك من الأدلة الصريحة ظاهرة الدلالة.

* ما الفائدة من وزن الكفار؟

١- إظهار عدل الله.

٢- إظهار خزيهم.

٣- معرفة منزلته في أي الدركات من النار.

أحوال الناس بعد الوزن:

بالنسبة للكفار فقد تقدم الكلام على وزنهم في الفقرة الماضية ، وأنهم بعد الوزن صائرون إلى النار.

---

[1] فتح الباري (٦٧١/١٣).

وأما المسلمون فلا تخلو أحوالهم من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: رجحان الحسنات.

الذين رجحت حسناتهم على سيئاتهم ولو بواحدة فإنهم يدخلون الجنة دون سابقة عذاب، والأدلة في هذا الشأن عديدة، فمنها:

قوله تعالى: (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ). المؤمنون (١٠٢).

وقوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ). القارعة (٦-٧).

المنكرون للميزان، والرد عليهم:

أنكر بعض المعتزلة الميزان وأولوه بالعدل.

وقد استدل شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– على أن الميزان غير العدل، وأنه ميزان حقيقي توزن به الأعمال بالكتاب والسنة، فقال: الميزان: هو ما يوزن به الأعمال، وهو غير العدل كما دلَّ على ذلك الكتاب والسنة، مثل قوله تعالى:﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وفي (الصحيحين) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم)، فكلامهم تأويل بلا مستند صحيح.

خامساً: الحوض

تعريف الحوض لغة وشرعاً:

الحوض لغة: مجمع الماء.

وشرعاً: حوض الماء النازل من الكوثر في عرصات القيامة للنبي، صلى الله عليه وسلم.

ودلت عليه السنة المتواترة، وأجمع عليه أهل السنة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني فرطكم على الحوض" متفق عليه.

والأحاديث فيه بلغت حد التواتر، جمع منها ابن حجر من رواية أكثر من (٥٠) صحابياً، ونقل أن بعض المتأخرين أوصلها إلى (٨٠) صحابياً.

وأجمع السلف أهل السنة على ثبوته، وقد أنكر المعتزلة ثبوت الحوض ويُرد عليهم بأمرين:

الأول: الأحاديث المتواترة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

الثاني: إجماع علماء الأمة.

صفة الحوض :

طوله شهر، وعرضه شهر، وزواياه سواء، وآنيته كنجوم السماء، وماؤه أبيض من اللبن وأحلى من العسل، وأطيب من ريح المسك، فيه ميزابان يمدانه من الجنة، أحدهما من ذهب ، والثاني من فضة، يرده المؤمنون من أمة محمد، ومن يشرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً، وكل هذا ثابت في الصحيحين أو أحدهما.

واستمداده من الكوثر لقوله صلى الله عليه وسلم: "وأعطاني الكوثر وهو نهر في الجنة يسيل في حوض" رواه أحمد.

خصوصية أمته ﷺ بالورود على حوضه وكثرتهم، وسيماهم: لكل نبي حوض، ولكن حوض النبي، صلى الله عليه وسلم أكبرها وأعظمها وأكثرها واردة لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "إن لكل نبي حوضاً، وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم واردة"رواه الترمذي.

وأما سيماهم فقد جاء ذلك في حديث الحوض- وسياتي بتمامه- وفيه : ...فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الشعث رؤوسًا الدنس ثيابًا، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد»(١).

صفات الكوثر: نهر من أنهار الجنة أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم يمد حوضه في الموقف بالماء.

وسيأتي بعض نعته في الأحاديث الآتية قريباً.

الفرق بين الحوض والكوثر:

دلت الأدلة على أن الحوض غير الكوثر، ويظهر هذا من خلال ما يأتي:

الأول: الحوض في موقف القيامة، وأما الكوثر فإنه في الجنة بدليل قوله ﷺ: "أتيت على نهرٍ حافتاه قبابُ اللؤلؤِ مجوفاً، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر"[٢].

الثاني: أن الكوثر أصل الحوض ومنه يُمد، بدليل أنه قال ﷺ عن الكوثر: "نهر وعدنيه ربي عز وجل في الجنة. عليه حوض"[٣].

ما معنى عليه حوض؟

يوضحه رواية حذيفة عند أحمد أن النبي ﷺ قال: "وأعطاني الكوثر فهو نهر من الجنة يسيل في حوضي"[٤].

ويشهد له ما جاء عند مسلم من حديث أبي ذر أن النبي ﷺ قال: "يشخب فيه ميزابان من الجنة"[٥].

أول الناس ورودا الحوض:

المهاجرون أول الأمة ورودًا الحوض؛ لفضلهم ورفعة قدرهم:

لقوله صلّى الله عليه وسلّم: «إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، وأكاويبه عدد النجوم، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، أول الناس ورودًا عليه فقراء

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

[٢] رواه البخاري (١٩٠٠/٤) حديث (٤٦٨٠).

[٣] رواه مسلم (٣٠٠/١) حديث (٤٠٠).

[٤] رواه أحمد (٣٩٣/٥) حديث (٢٣٣٨٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٩/١٠): (وإسناده حسن).

[٥] رواه مسلم (١٧٩٨/٤) حديث (٢٣٠٠).

المهاجرين» ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم الشعث رؤوسًا الدنس ثيابًا، الذين لا ينكحون المتنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد»[1].

المحرومون من ورود الحوض، وأسباب حرمانهم:

يذاد عن الحوض صنفان: المرتد والمبتدع.

ودليل ذلك ما رواه البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(ليردن علي ناس من أصحابي الحوض، حتى إذا عرفتهم، اختلجوا دوني، فأقول: أصحابي، فيقال لي: لا تدري ما أحدثوا بعدك) .

تنبيه:

منزلة الصحابة ومكانتهم في الدين أمر لا يجادل فيه مسلم صادق في إسلامه ، فهم الذين اختصهم الله لصحبة نبيه – صلى الله عليه وسلم – فصدقوه وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزله معه ، وبذلوا في سبيل دينهم المهج والأرواح والغالي والنفيس ، حتى اكتمل بنيانه واشتدت أركانه ، فكانوا خير جيل عرفته البشرية ، وخير أمة أخرجت للناس ، وكانوا أهلا لرضوان الله ومحبته .

والصحابة رضي الله عنهم هم أمناء هذه الأمة ، وحملة شريعتها ، ونقلتها إلى من بعدهم ، ولذا فإن الطعن فيهم والتشكيك في عدالتهم يفضي في الحقيقة إلى هدم الدين والقضاء على الشريعة ، وعدم الوثوق بشيء من مصادرها ، والإطاحة بجملة وافرة من النصوص والأحاديث التي إنما وصلتنا عن طريقهم وبواسطتهم ، وبالتالي إبطال الكتاب والسنة .

وقد أشرع أقوام سهامهم في وجه صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فعمدوا إلى تشويه صورتهم ، وتسويد صحائفهم ، واتهامهم بالنفاق والخيانة ، والردة والتبديل بعد رسول الله مستدلين بأحاديث أساؤوا فهمها ، وحرفوها عن مواضعها ليتوصلوا من خلالها إلى ما يريدون ، فادعوا أن أكثر الصحابة قد بدلوا وغيروا وارتدوا على أدبارهم بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلا القليل منهم .

واستدلوا على ذلك بأحاديث ، منها ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي – صلى الله عليه وسلم– قال: (بينا أنا قائم إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم فقال : هلم فقلت : أين قال : إلى النار والله ، قلت : وما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة ، حتى إذا عرفتهم ، خرج رجل من بيني وبينهم فقال : هلم : قلت : أين ؟ قال : إلى النار والله ، قلت : ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم).

---

(١) أخرجه الترمذي (أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم ٢٤٤٤)، وابن ماجه (كتاب الزهد، رقم ٤٣٠٣)، وأحمد (٣٧/٥٠) [مؤسسة الرسالة، ط١]، والآجري في الشريعة (١٢٥٦/٣) [دار الوطن، ط٢]، وغيرهم، وصحح المرفوعَ منه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ١٠٨٢).

وفي رواية عن أنس رضي الله عنه عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال : (ليردن علي ناس من أصحابي الحوض ، حتى عرفتهم اختلجوا دوني ، فأقول : أصحابي : فيقول : لا تدري ما أحدثوا بعدك)

ولرد هذه الشبهة نقول :

أولا : إن الذي حكم بعدالة الصحابة وديانتهم هو الله جل وعلا ، ورسوله – صلى الله عليه وسلم –كما هو معلوم ومتواتر في نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – منها قوله سبحانه :{ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود الآية } وقوله تعالى : {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم }وقوله عليه الصلاة والسلام –كما في الصحيحين– : (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ، وقوله: (لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) أخرجاه في الصحيحين ، وقوله: (الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه)رواه الترمذي .

إلى غير ذلك من النصوص التي تزكيهم ، وتشيد بفضلهم ومآثرهم وصدق إيمانهم وبلائهم ، وتدعو إلى حفظ حقهم وإكرامهم وعدم إيذائهم بقول أو فعل ، وأي تعديل بعد تعديل الله لهم ؟! ، وأي تزكية بعد تزكية رسوله – صلى الله عليه وسلم– الذي لا ينطق عن الهوى .

قال الإمام — ابن النجار – : "إن من أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بهذا الثناء كيف لا يكون عدلا ؟ فإذا كان التعديل يثبت بقول اثنين من الناس فكيف لا تثبت العدالة بهذا الثناء العظيم من الله سبحانه وتعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم"

ثانياً : من المعلوم أن الذين لقوا النبي– صلى الله عليه وسلم– لم يكونوا صنفاً واحداً ، فهناك المنافقون الذي كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون ، ومع ذلك كانوا يشهدون المشاهد والمغازي ، وهناك المرتابون ورقيقو الدين من جفاة الأعراب الذين ارتد كثير منهم بعد وفاته عليه الصلاة والسلام .

وقد قال سبحانه فيهم : {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) } [التوبة: ١٠١، ١٠٢]

وهذه الأحاديث قد ورد فيها ما يبين أسباب الذود عن الحوض ، وأوصاف أولئك المذادين عنه ، وهي أوصاف لا تنطبق على الصحابة رضي الله عنهم الذين رباهم النبي – صلى الله عليه وسلم– على عينه وتوفي وهو عنهم راض ، ولذا أجمع الأئمة والشراح على أن الصحابة رضي الله عنهم غير معنيين بهذه الأحاديث ، وأنها لا توجب أي قدح فيهم.

قال الإمام الخطابي رحمه الله : " لم يرتد من الصحابة أحد ، وإنما ارتد قوم من جفاة العرب ، ممن لانصرة له في الدين ، وذلك لا يوجب قدحاً في الصحابة المشهورين".

قال البغدادي في كتابه : (الفَرْق بين الفِرق) : " أجمع أهل السنة على أن الذين ارتدوا بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم– من كندة ، وحنيفة وفزارة ، وبني أسد ، وبني بكر بن وائل ، لم يكونوا من الأنصار ولا من المهاجرين قبل فتح مكة ، وإنما أطلق الشرع اسم المهاجرين على من هاجر إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– قبل فتح مكة وأولئك بحمد الله ومنِّه درجوا على الدين القويم والصراط المستقيم "

وقد اختلف العلماء في أولئك المذادين عن حوض النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد اتفاقهم على أن الصحابة رضي الله عنهم غير معنيين بذلك .

قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على مسلم (١٣٦/٣-١٣٧) عند كلامه على بعض روايات الحديث والتي فيها قوله عليه الصلاة والسلام : (وهل تدري ما أحدثوا بعدك) : " هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال :

أحدها : أن المراد به المنافقون والمرتدون ، فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل ، فيناديهم النبي – صلى الله عليه وسلم– للسيما التي عليهم ، فيقال: ليس هؤلاء مما وعدت بهم ، إن هؤلاء بدلوا بعدك : أي لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم .

والثاني : أن المراد من كان في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – ثم ارتد بعده ، فيناديهم النبي – صلى الله عليه وسلم– ، وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء ، لما كان يعرفه – صلى الله عليه وسلم – في حياته من إسلامهم ، فيقال : ارتدوا بعدك .

والثالث : أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد ، وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام " أهـ .

وذكر هذه الأقوال أيضاً القرطبي في المفهم (٥٠٤/١) ، والحافظ ابن حجر في الفتح (٣٨٥/١١) .

فعلم أن الصحابة رضي الله عنهم غير داخلين في هذه الأوصاف ، ولو رجعنا إلى تعريف العلماء للصحابي لوجدنا ما يبين ذلك بجلاء ، فقد عرفوا الصحابي بأنه : " من لقي النبي – صلى الله عليه وسلم – مؤمناً به ومات على ذلك " ، وهذا التعريف يخرج به المنافقون والمرتدون فلا يشملهم وصف الصحبة أصلاً .

ثالثا: هذه الأحاديث رواها الأئمة في كتب الصحاح والمسانيد والمعاجم عن عشرات الصحابة رضي الله عنهم منهم عمر و أبو هريرة و عائشة ، و أم سلمة ، و حذيفة ، و أبوسعيد الخدري ، و ابن مسعود ، و أنس ، و سهل بن سعد ، و ابن عباس ، فإذا كان هؤلاء هم المعنيون بهذه الأحاديث ، فهل من المعقول أن يثبتوها ويروووها لنا كما جاءت ، مع أن فيها ما يحكم بردتهم وتبديلهم وإحداثهم في الدين بعد نبيهم صلوات الله وسلامه عليه ؟! .

رابعاً : لو كان المقصود بهذه الأحاديث الصحابة الذين وجه إليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كلامه ، لما احتاج عليه الصلاة والسلام أن يقول : (ليردن علي الحوض أقوام) ، أو (بينا أنا قائم إذا زمرة) ، أو (ليردن علي ناس من أصحابي الحوض) ، أو (ثم يؤخذ برجال من أصحابي) ، ولتوجه

بالخطاب إليهم صراحة كأن يقول : (لتردن علي الحوض ثم لتختلجن دوني) ، وما أشبه ذلك ، مما يقطع بأن الصحابة رضي الله عنهم غير معنيين بهذه الأحاديث .

خامساً : وردت هذه الأحاديث بألفاظ تدل على التقليل والتصغير ، مثل قوله " أقوام " و" رهط " ، و" زمرة " ، و" أصيحابي " بالتصغير مما يرد الزعم بأن المقصود بهذه الأحاديث هم الأكثرية .

ألا ترى أن القائل إذا قال : أتاني اليوم أقوامٌ من بني تميم ، وأقوامٌ من أهل الكوفة فإنما يريد قليلاً من كثير ، ولو أراد أنهم أتوه إلا نفراً يسيراً ، لقال أتاني بنو تميم وأتاني أهل الكوفة ، ولم يجز أن يقول قوم ، لأن القوم هم الذين تخلفوا .

سادسا: من أين لهؤلاء المدعين تحديد بعض الصحابة بأنهم من المرتدين المحدِثين المذادين عن حوضه – صلى الله عليه وسلم– ، وتحديد آخرين بأنهم من المستثنين من ذلك ، والنصوص لم يرد فيها أي تحديد أو تقييد.

وجود الحوض الآن، والأدلة على ذلك:

يعتقد أهل السنة أن الحوض موجود الآن، فعن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: "إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن"[1].

معنى حديث : «منبري على حوضي»، و «إني الساعة لقائم على الحوض» وغيرهما :

قال ابن حجر رحمه الله: «وأما قوله: ومنبري على حوضي أي: ينقل يوم القيامة فينصب على الحوض، وقال الأكثر: المراد منبره بعينه الذي قال هذه المقالة، وهو فوقه، وقيل: المراد المنبر الذي يوضع له يوم القيامة، والأول أظهر. ويؤيده حديث أبي سعيد المتقدم، وقد رواه الطبراني في الكبير من حديث أبي واقد الليثي رفعه: إن قوائم منبري رواتب في الجنة وقيل: معناه أن قصد منبره والحضور عنده لملازمة الأعمال الصالحة يورد صاحبه إلى الحوض ويقتضي شربه منه، والله أعلم». فتح الباري لابن حجر (٤/ ١٠٠ ط السلفية).

وأما الحديث الآخر فهو حديث أبي سعيد الخدري قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه، وهو عاصب رأسه، قال: فاتبعته حتى صعد على المنبر قال: فقال: " إني الساعة لقائم على الحوض " قال: ثم قال: " إن عبدا عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة ". فلم يفطن لها أحد من القوم إلا أبو بكر، فقال: بأبي أنت وأمي، بل نفديك بأموالنا، وأنفسنا، وأولادنا، قال: ثم هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر، فما رئي عليه حتى الساعة» مسند أحمد (١٨/ ٣٧٠ ط الرسالة) ومعنى قوله «إني الساعة لقائم على الحوض»: أي: مطلع عليه كالقائم عليه، يريد أنه ظهر له الحوض وهو هنالك. [حاشية السندي].

---

[1] رواه البخاري (١/٤٥١) حديث (١٢٧٩) أو (٥/٢٤٠٨) حديث (٦٢١٨).

وأشار ابن رجب إلى المراد من ذلك فقال: (وتوديعه للأحياء: هو نصيحتهم وتحذيرهم من الاغترار بالدنيا، وإيماؤه إلى أنه منتقل عنهم إلى الآخرة، وأنه سابق لهم إلى الحوض، فهو موعدهم) فتح الباري لابن رجب (٣/ ٣٧٨). والله أعلم

المنكرون للحوض والرد عليهم:

أنكر الحوض الخوارج وبعض المعتزلة[١] ، قال ابن حزم: «ولا ندري لمن أنكره متعلقًا إلا الجهل بالآثار»[٢]

أما المعتزلة فتأولته حيث قالت: الحوض عبارة عن الرضا والرضوان، يتفضل الله به على من يشاء من عباده[٣].

ويرد عليهم بالنصوص المتواترة في إثبات الحوض، وأن الأصل فيها إرادة حقيقتها، وصفات الحوض الواردة في النصوص تدل على أنه حوض حقيقي محسوس، وليس هو شيئاً معنوياً كما تقوله المعتزلة وتفسره بالرضا والرضوان.

ويقال للمعتزلة أيضاً: هذا التأويل صرف لظاهر اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز «من غير استحالة عقلية، ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره وحقيقته، ولا حاجة تدعو إلى تأويله» – على فرض التسليم بالمجاز– وما كان كذلك فمردود، وأيضًا: فهذا الإنكار والتأويل مخالف لما ثبت بالسُّنَّة الصريحة المتواترة، ومخالف لما أجمعت عليه الأمة كما تقدم؛ فلا يعتد به.

سادساً: الصراط

الصراط لغة: الطريق.

وشرعاً: الجسر الممدود على متن جهنم ليعبر الناس عليه إلى الجنة.

وهو ثابت بالكتاب، والسنة، وقول السلف.

قال الله تعالى:(وإن منكم إلا واردها) وقد فسرها عبدالله بن مسعود، وقتادة، وزيد بن أسلم بالمرور على الصراط.

وفسرها جماعة منهم ابن عباس بالدخول في النار لكن ينجون منها.

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون : اللهم سلم سلم" متفق عليه.

---

(١) انظر: الإبانة (١٤١)، ومقالات الإسلاميين (١٦٥/٢) [المكتبة العصرية، ط١٤١١هـ]، وفتح الباري (٤٦٧/١١)، وروح المعاني (٢٤٥/٣٠) [دار إحياء التراث، ط٤]، ولوائح الأنوار (١٧٣/٢)، ولوامع الأنوار (٢٠٢/٢).

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١١٥/٤) [دار الجيل، ط١٤٠٥هـ].

(٣) القول المفيد شرح وسيلة العبيد في علم التوحيد (٦٣) [دار العاصمة، ط١، ١٤٠٥هـ].

واتفق أهل السنة على إثباته.

صفة الصراط:

سئل النبي صلى الله عليه وسلم ، عن الصراط فقال: "مدحضة مزلة، عليه خطاطيف وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء، تكون بنجد، يقال لها: السعدان " رواه البخاري.

وله من حديث أبي هريرة: "وبه كلاليب مثل شوك السعدان غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله يخطف الناس بأعمالهم".

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال:" بلغني أنه أدق من الشعر، وأحد من السيف".

عموم المرور على الصراط، ومعنى الورود على النار :

المرور على الصراط عام للمؤمنين وغيرهم من المنافقين والكفار على الصحيح. كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

لكن لا يعبر الصراط ويتجاوزه إلا المؤمنون ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

وذهب بعض العلماء إلى أن الكفار يستثنون من الورود على الصراط؛ لأنه يصار بهم إلى جهنم قبل ذلك(١).

والورود على النار له عدة معانٍ:

الأول: بمعنى دخولها وذوق عذابها. قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

والثاني: العبور على الصراط. وبه فسرت آية الورود ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١-٧٢]. وهوالصحيح في معناها كما سياتي تقريره.

والثالث: دخول النار ثم النجاة منها دون ذوق عذابها. وهذا المعنى مختلف فيه، وبه فسر بعض المفسرين آية الورود السابقة. والصحيح أن المراد بالورود في الآية: العبور على الصراط.

ويدل له النصوص الشرعية في الباب، ومنها حديث أم مبشر في الصحيح قالت: سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول عند حفصة: «لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى، يا رسول الله، فانتهرها، فقالت حفصة: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} [مريم: ٧١] . فقال النبي

---

(١) انظر: النشر الطيب (٣٧٩/٢)، ومجموع فتاوى ابن عثيمين (١٨٥/٣) [دار الوطن، ١٤١٣هـ].

صلّى الله عليه وسلّم: «قد قال الله عزّ وجل: {ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقُوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا *} [مريم] »[1].

وعن ابن مسعود في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} [مريم: ٧١] قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم»[2].

وعلى ذلك أكثر العلماء في القديم والحديث[3].

قال الطبري رحمه الله بعد سرد الأقوال في معنى الورود: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: يردها الجميع ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار.

وورودهم هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناج مسلم ومكدوس فيها»[4].

وقال ابن تيمية رحمه الله: «وأما الورود المذكور في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا} [مريم: ٧١] فقد فسره النبي صلّى الله عليه وسلّم في الحديث الصحيح، رواه مسلم في صحيحه عن جابر: بأنه المرور على الصراط، والصراط هو الجسر، فلا بد من المرور عليه لكل من يدخل الجنة من كان صغيرًا في الدنيا ومن لم يكن»[5]

العبور على الصراط وكيفيته:

يعبر الصراط ويتجاوزه المؤمنون ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

ويكون عبور المؤمنين على قدر أعمالهم لحديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي، صلى الله عليه وسلم ، وفيه: "فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبرق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل ومكدوس في جهنم". متفق عليه.

وفي صحيح مسلم: "تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: يا رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً".

وفي صحيح البخاري:

"حتى يمر آخرهم يسحب سحباً".

---

(١)أخرجه مسلم (كتاب فضائل الصحابة، رقم ٢٤٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي (أبواب تفسير القرآن، رقم ٣١٥٩) وحسَّنه، وأحمد (١٣٢/٢) [دار الفكر، ط١، ١٤١١هـ] واللفظ له، والدارمي (كتاب الرقاق، رقم ٢٨٥٢)، والحاكم (كتاب التفسير، رقم ٣٤٢١) وصحَّحه، وصحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٣١١).

(٣) انظر: رسائل الآخرة (١٣٢٩/٣ . ١٣٣٥).

(٤) تفسير الطبري (٣٦٧/٨) [مؤسسة الرسالة، ط١].

(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٧٩/٤) [دار عالم الكتب، ط١٤١٢هـ].

ويعطى كل منهم نوراً ، كما قال تعالى : ({يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} [الحديد: ١٢ – ١٤]).

وجاء في حديث ابن مسعود الطويل أن أنوارهم على قدر أعمالهم، حيث قال: (...فيعطون نورهم على قدر أعمالهم قال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر ذلك من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة، ويطفئ مرة، فإذا أضاء قدمه، وإذا طفئ قام..) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٠٨)

وأول من يعبر الصراط من الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن الأمم أمته لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: "فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعاء الرسول يومئذ اللهم سلم سلم" رواه البخاري.

المنكرون للصراط، والرد عليهم:

ذهب المعتزلة والعقلانيون إلى إنكارِ الصراط، وما جاء في وصفه وقالوا :لا يمكن عبورُه أبدًا، إذا كان بهذه الصفة؛ ردًّا بعقولهم، قالوا: إذا كان أدقَّ من الشعر، وأحدَّ من السيف، ودحْضًا مزِلَّة، كيف يعبُر الناسُ هذا؟ ثم من يمر عليه؟! والله تعالى يقول :﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾, فيكون المؤمنون كلهم ممن يمرون عليه، قالوا: وإذا كان المؤمنون سيمرون، فهذا تعذيبٌ لهم، والمؤمنون حقهم الجنة، فلماذا يعذَّبون؟

ويرد عليهم : بأن هذا الوصف جاء في السنة الصحيحة الصريحة المحكمة يجب علينا التسليم له ، وإن لم نعقل صفته، فلا وجه لرده بالعقول والآراء.

القنطرة

القنطرة : المكان الذي يحبس عليه بعض المؤمنين بعد جواز الصراط وقبل دخول الجنة، للمقاصة فيما بينهم، وهي تتمة الصراط(١).

والقنطرة ثبتت في السنة النبوية، وهي خاصة لمسلك المؤمنين إلى الجنة، كما ورد بذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة بمنزله كان في الدنيا" رواه البخاري.

---

(١) انظر: التذكرة في أحوال الموتى والآخرة (٣٩٢) [دار قباء للنشر]، وفتح الباري لابن حجر (١١٥/٥، ٤٠٦/١١) [دار الريان، ط١، ١٤٠٧هـ]، ولوامع الأنوار (١٩٠/٢) [المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤١١هـ].

دل الحديث على أن المؤمنين يحبسون على هذه القنطرة، والغرض من ذلك: تنقيتهم من مظالم يسيرة كانت بينهم، إما بعفو بعضهم عن بعض، وإما باقتصاص بعضهم من بعض، لكي يدخلوا الجنة وليس في قلوبهم غل ولا حقد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥-٤٧] (١). والله أعلم

سابعاً : الشفاعة

الشفاعة لغة : اسم من شفع يشفع ، إذا جعل الشيء اثنين ، والشفع ضد الوتر ، قال تعالى: (والشفع والوتر).

والشفاعة اصطلاحًا : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

مثال لجلب المنفعة : شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الجنة بدخولها .

مثال لدفع المضرة : شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل الكبائر.

الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية:

الشفاعة تنقسم إلى قسمين:

١ ـ باطلة منفية، وهي ما فقدت أحد شروط الشفاعة المقبولة، وستأتي.

٢ ـ صحيحة مثبتة، وهي ما تحققت فيها شروط الشفاعة.

شروط الشفاعة المقبولة ثلاثة:

الشرط الأول: إذن الله تعالى للشافع أن يشفع:

والأدلة على هذا الشرط كثيرة، منها قوله تعالى: (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ).

فإن قيل: إن الشفاعة لا تكون إلا بإذنه سبحانه، فكيف يسمَّى دعاء الانسان لأخيه شفاعة وهو لم يستأذن من ربه؟

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في كتابه "القول المفيد" (٤٢٩/١): "إن الله أمر بأن يدعو الانسان لأخيه الميت وأمره بالدعاء، فالدعاء إذن وزيادة" اهـ.

الشرط الثاني: الرضا عن المشفوع له.

قال تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ).

(١) انظر: تفسير ابن كثير – ت السلامة (٣/ ٤١٥).

ويستثنى من هذا الشرط نوعان من الشفاعة:

١- الشفاعة العظمى الخاصة بالنبي ﷺ في أهل المحشر، وتكون عامة لجميع الناس، وهي تكون لمن رضي الله عنهم، ومَن لم يرضَ عنهم.

٢- شفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب تستثنى أيضاً من هذا الشرط، وهي خاصة بالنبي ﷺ حيث إن عمه في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وأنه لأهون أهل النار عذاباً، والنبي ﷺ قال: " ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار".

الشرط الثالث: الرضا عن الشافع.

قال تعالى: (يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً).

شفاعات سيد المرسلين ﷺ:

ثبت لنبينا محمد صلّى الله عليه وسلّم من الشفاعات ثمانية أنواع يوم القيامة، منها ما هو خاص به، ومنها ما يشاركه فيها غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، وهي:

١ ـ الشفاعة العظمى، وهي شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في أهل الموقف أن يقضي الله بينهم، وهذه الشفاعة مما اختص بها نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم على غيره من الرسل صلوات الله عليهم.

٢ ـ شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم أن يدخلوا الجنة.

٣ ـ شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في أقوام قد أُمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها.

٤ ـ شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم.

٥ ـ شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب.

٦ ـ شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في تخفيف العذاب عمن كان يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب.

٧ ـ شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في أهل الجنة أن يؤذن لهم بدخول الجنة.

٨ ـ شفاعته صلّى الله عليه وسلّم في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار أن يخرج منها.

وتفصيلها كالآتي:

أنواع الشفاعات:

النوع الأول : الشفاعة العظمى:

وهي شفاعة الموقف التي اختص بها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي تخليص الناس من الكرب في انتظار الفصل إلى القضاء ، وتعجيل الحساب والتمييز بين فريقي الجنة والنار ، ويدخل فيها جميع الخلائق وهي المقام المحمود الذي وعده به ربه عز وجل بقوله :(عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً).

النوع الثاني : الشفاعة في دخول الجنة:

ومن أدلتها حديث أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه عن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:(أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ ، لَمْ يُصَدَّقْ نَبِيٌّ مِنْ الأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ ، وَإِنَّ مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلا رَجُلٌ وَاحِدٌ) رواه مسلم.

النوع الثالث : شفاعته صلى الله عليه وسلم فيمن يدخلون الجنة بغير حساب:

وهي مختصة بفضلاء المؤمنين في الموقف ، وإدخالهم الجنة بغير حساب ، وتعجيلهم إلى منازلهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (... ثُمَّ يُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ .فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ الأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ) رواه البخاري.

النوع الرابع : الشفاعة في عمه أبي طالب لتخفيف العذاب عنه :

وهي خاصة بنبينا صلى الله عليه وسلم، ولم تكن لأحد من الكفار غير أبي طالب .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه : (أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ فَقَالَ : لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ) رواه البخاري.

النوع الخامس : شفاعته صلى الله عليه وسلم لإخراج أقوام من النار بعد الدخول فيها:

وهذه الشفاعة يشاركه فيها الملائكة والنبيون والصديقون والشهداء والمؤمنون ، وأحاديث الشفاعة الكبرى التي مرت فيها ذكر طرف من ذلك فلا نكررها هنا ، ونذكر بعض الأدلة الأخرى :

عن عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ) رواه البخاري.

ومن العلماء من جعل الشفاعة في أهل الكبائر نوعًا آخر ، وفرقوا بينها وبين الذين يخرجون بالشفاعة من النار .

النوع السادس : الشفاعة في أقوام استوجبوا النار ، وأمر بهم إلى النار أن لا يدخلوها:

وَهَذَا النَّوْع ذكر ابن القيم وغيره أنه لم يَقِف إِلَى الآن عَلَى حَدِيث يَدُلّ عَلَيْهِ، وَأَكْثَر الأَحَادِيث صَرِيحَة فِي أَنَّ الشَّفَاعَة فِي أَهْل التَّوْحِيد مِنْ أَرْبَاب الْكَبَائِر إِنَّمَا تَكُون بَعْد دُخُولهمْ النَّار، وَأَمَّا أَنْ يُشْفَع فِيهِمْ قَبْل الدُّخُول ،فَلا يَدْخُلُونَ ، فَذكر ابن القيم أنه لَمْ يظْفَر فِيهِ بِنَصٍّ. انظر: حاشية ابن القيم على سنن أبي داود (١٣/ ٥٦).

والصحيح أن هذا النوع ثابت وقد نص عليها جماعة من أهل العلم كابن تيمية وابن كثير وابن حجر وابن ابي العز والقرطبي والسفاريني وغيرهم ، وقد دل عليه قول النبي ﷺ:(رب سلم) وفي رواية:(اللهم سلم سلم) وهذا يومئذ كلام الأنبياء عليهم السلام يدعون بالسلامة للمؤمنين ، والدعاء بالسلامة في هذا الموطن نوع من الشفاعة.

ويدل عليها الحديث الآخر:(شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) والدلالة في هذا الحديث من وجهين

الأول: أهل الكبائر لفظ عام فهو يشمل الذين دخلوا النار والذين لم يدخلوها.

الثاني: إن قبول شفاعة الشافع فيهم قبل دخولهم النار أقوى وأبلغ في التكريم من قبول شفاعته فيهم بعد دخولهم النار.

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله : (الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها ، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئًا ، إلا شفعهم فيه) رواه مسلم ، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار ، فيشفعهم الله في ذلك.

النوع السابع : شفاعته في رفع درجات المؤمنين في الجنة بعد استقرارهم فيها:

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّه: (.. وَكَذَلِكَ شَفَاعَتُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي زِيَادَةِ الثَّوَابِ وَرَفْعِ الدَّرَجَاتِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ قِيلَ إنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدْعَةِ يُنْكِرُهَا). وقَالَ اِبْن الْقَيِّم رَحِمَهُ اللَّه: (شَفَاعَته لِقَوْمٍ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فِي زِيَادَة الثَّوَاب ، وَرِفْعَة الدَّرَجَات ، وَهَذَا قَدْ يُسْتَدَلّ عَلَيْهِ بِدُعَاءِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي سَلَمَة وَقَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :(اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لأَبِي سَلَمَة ، وَارْفَعْ دَرَجَته فِي الْمَهْدِيِّينَ) ، وَقَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيث أَبِي مُوسَى :(اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِعُبَيْدٍ أَبِي عَامِر ، وَاجْعَلْهُ يَوْم الْقِيَامَة فَوْق كَثِير مِنْ خَلْقك).

النوع الثامن: شفاعته صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر :

ومستند هذا النوع من الشفاعة حديث : (شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي) رواه أبو داود ،وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٩٦٥).

وقت الشفاعة لمن دخل النار من الموحدين:

دل حديث أبي سعيد الخدري الطويل في الشفاعة على أن الإذن بالشفاعة يكون بعد ضرب الجسر على متن جهنم، وابتداء الشفاعة يكون عند خلوص المؤمنين ونجاتهم من النار ودخولهم الجنة.

جاء فيه: (...ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَى جَهَنَّمَ **وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ** وَيَقُولُونَ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجِسْرُ قَالَ « دَحْضٌ مَزِلَّةٌ. فِيهِ خَطَاطِيفُ وَكَلاَلِيبُ وَحَسَكٌ تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُوَيْكَةٌ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ كَطَرْفِ الْعَيْنِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَالطَّيْرِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ وَمَكْدُوسٌ فِى نَارِ جَهَنَّمَ. حَتَّى إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِى اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِى النَّارِ يَقُولُونَ رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ. فَيُقَالُ لَهُمْ أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ. فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا....)

الشافعون وأنواع الشفاعات:

يشفع المؤمنون، والشهداء، والصالحون، وصغار المؤمنين وحافظ القرآن والملائكة على قدر مراتبهم، ومقاماتهم عند ربهم.

عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – في حديث الرؤية الطويل، وفيه (فيقول الله – عز وجل :– شَفَعَت الملائكة، وشَفَع النبيُّون، وشَفَع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيَقبِض قبضةً من النار، فيُخرِج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حُمَمًا، فيُلقِيهم في نهرٍ في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيَخرُجون كما تخرج الحبَّة في حَمِيل السيل ...).

موجبات حصول الشفاعة:

وتسمى أسباب نيل الشفاعة، منها:

١– فأعظمها : التوحيد؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصا من قلبه أو نفسه)).صحيح البخاري (١/ ٢٦٧) .

وهي نائلة أصحاب الكبائر من الموحدين– كما تقدم في أنواع الشفاعات.

٢– تلاوة القرآن:

روى مسلمٌ عَنْ أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ"؛ (مسلم حديث ٨٠٤).

٣– الصيام:

روى أحمدٌ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النُّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ فيُشَفعانِ؛ (حديث صحيح)، (صحيح الجامع للألباني حديث: ٣٨٨٢).

٤– صلاة الجنازة على الميت:

روى مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: مَا مِنْ مَيِّتٍ تُصَلِّي عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يَبْلُغُونَ مِائَةً كُلُّهُمْ يَشْفَعُونَ لَهُ إِلَّا شُفِّعُوا فِيهِ؛ (مسلم حديث ٩٤٧).

روى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ مَاتَ ابْنٌ لَهُ بِقُدَيْدٍ أَوْ بِعُسْفَانَ، فَقَالَ: يَا كُرَيْبُ انْظُرْ مَا اجْتَمَعَ لَهُ مِنْ النَّاسِ؟ قَالَ: فَخَرَجْتُ فَإِذَا نَاسٌ قَدْ اجْتَمَعُوا لَهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: تَقُولُ هُمْ أَرْبَعُونَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَخْرِجُوهُ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمْ اللَّهُ فِيهِ؛ (مسلم حديث ٩٤٨).

٥- ترديد الأذان والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب الوسيلة له:

روى مُسْلِمٌ عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»؛ (مسلم حديث: ٣٨٤).

٦- الشهادة في سبيل الله:

روى أبو داودَ عَنْ أبي الدَّرْدَاءَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؛ (حديث صحيح) (صحيح أبي داود للألباني حديث:٢٢٠١).

موجبات حرمان الشفاعة:

وتسمى موانع الشفاعة، فمنها:

١- الشرك والكفر: قال تعالى عن المجرمين : ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، ومفهوم حديث أبي هريرة المتقدم.

٢- كثرة اللعن: وهذا يمنع العبد أن يكون شفيعاً يوم القيامة ، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء، يوم القيامة»[١].

المنكرون للشفاعة والرد عليهم:

الصنف الأول: قوم أفرطوا وغلوا في إثباتها .

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٨) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

وهم المشركون الذين طلبوا الشفاعة من الأموات، ومن الأصنام، ومن الأنداد، ويزعمون أنهم شفعاء لهم عند الله وهؤلاء قال الله عنهم: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ).

الصنف الثاني: قوم فرَّطوا فأنكروها وغَلَوا في نفيها.

وهؤلاء هم الخوارج والمعتزلة، الذين كذبوا ونفوا الشفاعة عموماً، وفي أهل الكبائر خصوصاً، اعتماداً على عقيدتهم الباطلة ومذهبهم الفاسد: أن صاحب الكبيرة مُخَلَّد في النار؛ لذا فهم لا يعترفون أن النبي ﷺ يشفع في أقوام من أهل التوحيد دخلوا النار بذنوبهم، فيخرجون منها بشفاعة النبي ﷺ،

وهؤلاء انتصروا لمذهبهم الفاسد بأدلة عامة كقوله تعالى: (وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ) ، وقوله تعالى :(مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِه). وغابت عنهم النصوص المتظافرة في إثبات الشفاعة ، ويُخشى عليهم أن يكون لهم حظ ونصيب من كلام أنس رضي الله عنه حيث قال: "مَن كَذَّب بالشفاعة فليس له فيها نصيب" أخرجه سعيد ابن منصور بسند صحيح. (انظر فتح البارى:١١/٤٢٦)

وقد أنكرت الخوارجُ الشفاعةَ لأهل الكبائر بناء على قولهم بتخليد أهل الكبائر في النار، وقد حكى ذلك عنهم جمع من العلماء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (لكن كثيراً من أهل البدع، والخوارج، والمعتزلة، أنكروا شفاعته (أي: النبيّ ﷺ) لأهل الكبائر، فقالوا: لا يشفع لأهل الكبائر، بناء على أنّ أهل الكبائر عندهم لا يغفر الله لهم، ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا بغيرها).

ويرد عليهم بنصوص الشفاعة في أهل الكبائر ومنها شفاعات النبي صلى الله عليهم والأنبياء والصالحون المتقدم ذكرها.

الصنف الثالث: قول ابن سينا وأمثاله أن الشفاعة تنفع لتعلق الشفيع بالمشفوع وإن لم يكن هناك دعاء من الشفيع، وشُبِّه ذلك بشعاع الشمس الذي يظهر في المرآة، والمرآة تطرح شعاعها على الماء، والشعاع الذي على الماء يظهر فيه الحائط، وأن العبد إذا تعلق بالملائكة والأنبياء كان ما ينزل عليهم من الرحمة ينزل عليه من ذلك بتوسطهم، كما ينتفع أتباع المتبوع بما يحصل له من الجاه والمنزلة، وهذا الذي قاله هو شر من قول المشركين وهذه هي الشفاعة التي أبطلها الله ورسوله صلّى الله عليه وسلّم[1].

(١) انظر: الرد على البكري (١/١٥٦) [مكتبة الغرباء الأثرية، ط١، ١٤١٧هـ].

ثامناً وتاسعاً: الجنة والنار

الجنة لغة: البستان الكثير الأشجار.

وشرعاً: الدار التي أعدها الله في الآخرة للمتقين.

والنار: هي الدار التي أعدها الله في الآخرة للكافرين.

وهما مخلوقتان الآن لقوله تعالى في الجنة:(أعدت للمتقين)

وفي النار:(أعدت للكافرين)، والإعداد التهيئة.

ولقوله صلى الله عليه وسلم ، حين صلى صلاة الكسوف: "إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً قط أفظع".متفق عليه.

والجنة والنار لا تفنيان لقوله تعالى:(جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً)، وقوله سبحانه :(إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً. خالدين فيها أبداً).

مكان الجنة والنار:

الجنة في أعلى عليين لقوله تعالى:(كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين).

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث البراء بن عازب المشهور في قصة فتنة القبر:"فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض".

والنار في أسفل سافلين لقوله تعالى:(كلا إن كتاب الفجار لفي سجين)

وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث البراء بن عازب السابق: "فيقول الله تعالى :اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى".

من أسباب دخول الجنة:

١- صحة العقيدة و العمل. وأعظم ذلك تحقيق التوحيد ونبذ الشرك والبدع.

٢- التقوى

٣- إيثار طاعة الله على المصلحة الشخصية

٤- الجهاد في سبيل الله

٥- طلب العلم لوجه الله

٦- حسن الخلق.

من أسباب دخول النار:

١- الشرك والكفر والنفاق والفسوق والبدع والضلالات .

٢- كبائر الذنوب كالربا والزنا والسحر والعقوق وقطع الأرحام والغيبة والنميمة.

فائدة: في **أعمال أهل الجنة وأعمال أهل النار:**

سئل شيخ الإسلام (ابن تيمية رحمه الله) ما عمل أهل الجنة؟ وما عمل أهل النار؟

فأجاب – الحمد لله رب العالمين: عمل أهل الجنة الإيمان والتقوى، وعمل أهل النار الكفر والفسوق والعصيان. فأعمال أهل الجنة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر – خيره وشره، والشهادتان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت. وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ومن أعمال أهل الجنة صدق الحديث، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، واليتيم والمسكين والمملوك من الآدميين والبهائم. ومن أعمال أهل الجنة الإخلاص لله والتوكل عليه، والمحبة له ولرسوله، وخشية الله ورجاء رحمته، والإنابة إليه والصبر على حكمه والشكر لنعمه. ومن أعمال أهل الجنة قراءة القرآن، وذكر الله ودعاؤه ومسألته والرغبة إليه، ومن أعمال أهل الجنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله للكفار والمنافقين.

ومن أعمال أهل الجنة أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك، فإن الله أعد الجنة للمتقين **﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** [آل عمران ١٣٤]. ومن أعمال أهل الجنة العدل في جميع الأمور وعلى جميع الخلق حتى الكفار، وأمثال هذه الأعمال.

وأما عمل أهل النار فمثل الإشراك بالله، والتكذيب بالرسل، والكفر والحسد والكذب الخيانة، والظلم والفواحش والغدر وقطيعة الرحم، والجبن عن الجهاد والبخل واختلاف السر والعلانية، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والجزع عند المصائب، والفخر والبطر عند النعم، وترك فرائض الله، واعتداء حدوده، وانتهاك حرماته، وخوف المخلوق دون الخالق، ورجاء المخلوق دون الخالق، والتوكل على المخلوقين دون الخالق، والعمل رياء، وسمعة ومخالفة الكتاب والسنة، وطاعة المخلوق في معصية الخالق، والتعصب بالباطل، والاستهزاء بآيات الله، وجحد الحق، والكتمان لما يجب إظهاره من علم وشهادة. ومن عمل أهل النار السحر، وعقوق الوالدين، وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار من الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وتفصيل الجملتين لا يمكن، لكن أعمال أهل الجنة كلها تدخل في طاعة الله ورسوله، وأعمال أهل النار كلها تدخل في معصية الله ورسوله **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** [النساء ١٣ – ١٤] (١). والله أعلم –

أبدية الجنة والنار:

القول المشهور عن السلف المدون في عقائدهم أن الجنة والنار باقيتان لا تفنيان.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج١٠ ص٤٢٢.

ونقل عن بعض المتأخرين من أهل السنة القول ببقاء الجنة وفناء النار، وقد روي هذا عن بعض الصحابة ولم يصح عن أحد منهم[1]، واستدلوا بأدلة أشهرها ثلاثة:

الأول: قول الله تعالى: (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) هود (١٠٦-١٠٧).

قالوا أن الاستثناء في قوله تعالى: (إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ) يقتضي أن العذاب غير دائم.

واستدلالهم هذا ضعيف، والرد عليه من أوجه:

١- إن قوله تعالى: (إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ) استثناء في أهل الكبائر من الموحدين فإنهم شقوا شقاوة مؤقتة، وهذا قول قتادة والضحاك وغيرهما وهو اختيار ابن جرير رحم الله الجميع[2]. ويكون استعمال (ما) فيه للعاقل، وهذا سائغ في لغة العرب، فيصبح المعنى "إلا من شاء ربك" والمراد العقلاء، ولهذا نظائر في النصوص، كقوله تعالى: (فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) النساء (٣)، وقوله: (وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ) النساء (٢٢).

٢- أن الاستثناء راجع إلى المدة ما بين خلقهم إلى دخولهم النار، فالله حكم بأنهم خالدون في النار ما دامت السموات والأرض، ثم استثنى مدة خلقهم وعيشهم إلى موتهم، ففي هذه المدة لم يدخلوا في النار.

٣- أن قوله تعالى: (إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ) مجمل، والنصوص الصريحة القطعية دالة على بقاء النار وعدم فنائها، والقاعدة أن المبين مقدم على المجمل، والصريح مقدم على غير الصريح.

٤- أن الله ذكر هذا الاستثناء في حق أهل الجنة فقال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) هود (١٠٨). والمخالفون مقرون ببقاء الجنة؛ فكل كلام لهم في الرد على اعتراضنا في استثناء آية أهل الجنة، نقوله لهم في أهل النار.

الثاني: قوله تعالى: (خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) الأنعام (١٢٨).

واستدلالهم هذا نجيب عليه بما أجبناهم في استدلالهم السابق.

الثالث: قوله تعالى: (لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) النبأ (٢٣).

قالوا: الأحقاب جمع حُقْب أو حُقُب، وهي المدة الطويلة، وقدرها بعضهم بثمانين أو مائة سنة. وقد جاءت (أحقاباً) نكرة فدلت على انتهاء هذه المدد بعد زمن.

والجواب من وجهين:

١- أن يقال إن قوله تعالى: (لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) متعلق بما بعده وهو قوله تعالى: (لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا * إِلا

---

[1] انظر السلسلة الضعيفة (٧٣/٢). وللنظر في هذه الآثار انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز (٦٥١/٢-٦٥٢).

[2] تفسير ابن جرير (١١٧/١٢-١١٨). أما اختيار ابن جرير (١١٩/١٢).

حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) فهم يلبثون مدداً لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً، فإذا انتهت هذه المدد أتاهم نوع آخر وصنف جديد من العذاب وهكذا. ونظير هذا قوله تعالى: (هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ) سورة ص (٥٧-٥٨).

٢- أن لفظة الأحقاب تعني: المدد المتطاولة، وهو لفظ مجمل، وقد بُيِّن في النصوص الأخرى أنه لا نهاية له. فقد قال تعالى: (كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا)، وقال تعالى: (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ).

*** هناك مسلك هو أفضل ما يكون في الرد على القائلين بفناء النار، وهو مسلك السبر والتقسيم،** وقد سلكه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[1]، وحاصل كلامه:

أن المقام لا يخلو من إحدى خمس حالات بالتقسيم الصحيح وغيرها راجع إليها:

الحالة الأولى: أن النار تفنى، وأهلها يستريحون من عذابها.

الحالة الثانية: أن النار باقية، ولكن أهلها يموتون.

الحالة الثالثة: أن النار باقية، ولكن أهلها يخرجون منها.

الحالة الرابعة: أن النار باقية، ولكن أهلها يخفف عنهم العذاب.

الحالة الخامسة: أن النار باقية، وأهلها فيها باقون.

أما الحالة الأولى: فيردها قوله تعالى: (كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) وقوله تعالى: (كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ) ومعلوم أن (كلما) تقتضي التكرار بتكرر الفعل الذي بعدها.

وأما الحالة الثانية: فيردها قوله تعالى: (لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ) فاطر (٣٦). وقوله تعالى: (وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ) إبراهيم (١٧). وكذا حديث ذبح الموت.

وأما الحالة الثالثة: فيردها قوله تعالى: (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا) السجدة (٢٠). وقوله تعالى: (وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ) البقرة (١٦٧). فهذا نص قطعي بأنهم لن يخرجوا منها.

وأما الحالة الرابعة: فيردها قوله تعالى: (لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا) فاطر (٣٦). وقوله تعالى: (فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلا عَذَاباً) النبأ (٣٠). فهم في زيادة مستمرة.

فإذا تبين بهذه النصوص بطلان هذه الحالات الأربع تعينت الحالة الخامسة وهي: أن النار باقية، وأهلها فيها باقون.

ما صحة نسبة القول بفناء النار لشيخ الإسلام ابن تيمية والعلامة ابن القيم رحمهما الله؟

أولاً: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

---

[1] في كتاب دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، عند آية سورة الأنعام التي استدل بها من يقول بفناء النار.

الإمام ابن تيمية رحمه الله ليس عنه كلمة واحدة فيها القول بأن النار تفنى، بل إن الأقوال الصريحة له أن النار لا تفنى، بل نقل عليه الإجماع .

– طبعت له رسالة مؤخراً، أورد فيها أدلة القائلين بفناء النار واستدلالاتهم، ولم يذكر في هذه الرسالة أي ترجيح، ولم يثبت محقق هذه الرسالة أنها لابن تيمية إلا بما ذكر أن ابن القيم ذكر كلاماً موجوداً فيها وأحاله على ابن تيمية رحمهما الله.

ثانياً: الإمام ابن القيم رحمه الله: ويختلف فيه الأمر، فله رحمه الله في كتبه ثلاثة مواقف:

الموقف الأول: يفهم من كلامه الميل إلى القول بفناء النار[1].

الموقف الثاني: هو التوقف فقال: (فإن قيل: فإلى أين أنتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن، التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟ قيل: إلى قوله تبارك وتعالى: (إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وإلى هنا قدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فيها، حيث ذكر دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وما يلقاه هؤلاء وهؤلاء، وقال: ثم يفعل الله بعد ذلك ما يشاء بل وإلى ها هنا انتهت أقدام الخلائق)[2].

الموقف الثالث: التفصيل، وهذا ما سلكه في أوائل كتابه الوابل الصيب[3] فإنه ذهب إلى أن نار العصاة تفنى، وأن نار الكفار لا تفنى[4]. فقال رحمه الله: (ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب لا يشوبه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب، كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى، وهي دار العصاة، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد) [5].

وقد ظهر في قوله الأخير جزمه به، فالأولى أن ينسب إليه. ويحمل قوله بفناء نار العصاة على فناء العذاب المخصص للعصاة فإنه ينتهي بخروجهم من النار ، أما النار نفسها فلا تفنى .والله أعلم

مراجع مهمة في موضوع فناء النار لمن أراد الاستزادة:

١– دفع الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي.

٢– معارج الصعود إلى تفسير سورة هود للشنقيطي أيضاً.

٣– رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للصنعاني – بتقديم الألباني.

٤– كشف الأستار لإبطال ادعاء فناء النار للدكتور علي الحربي.

ذبح الموت:

---

[1] شفاء العليل (ص٢٥٤)، وكذا في الصواعق المرسلة، وأيضاً ما أورده في حادي الأرواح.

[2] حادي الأرواح (ص٢٧٣–٢٧٤).

[3] (ص٣٤).

[4] وفيه نظر، لأنه لا دليل على تقسيم النار إلى نارين: نار عصاة، ونار كفار، ولكن النار دركات، والعصاة في أخفها.

[5] الوابل الصيب – ط عطاءات العلم (١/ ٤٢).

الموت زوال الحياة أو مفارقة الروح للجسد، وكل نفس ذائقة الموت، وهو أمر معنوي غير محسوس بالرؤية، ولكن الله تعالى يجعله يوم القيامة شيئاً مرئياً مجسماً ويذبح بين الجنة والنار لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي، صلى الله عليه وسلم ، قال: "يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت وكلهم قد رآه، ثم ينادي: يا أهل النار فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت".

ثم قرأ:(وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون) رواه البخاري .

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وآله.